نظرات في القوة والجهاد

على ضوء الكتاب والسنة

أ . د . علي محيي الدين القره داغي
أستاذ ورئيس قسم الفقه والأصول
كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية
جامعة قطر

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى اله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

و بعد ،

فقد أولى الإسلام عناية منقطعة النظير بالرحمة والعدالة والمعاني الإنسانية حتى لا نرى مثلها في أي نظام، أو دين آخر، ويكفي أن نرى القرآن الكريم يكرر لفظة« رحم » ومشتقاتها أكثر من (٣٤٠) مرة، تحدث فيها عن عظمة الرحمة، وكونها صفة لرب العالمين، بل إنها الكلمة الوحيدة التي اشتقت منها صفتان لله تعالى يذكرهما المسلم في صلاته، وعند بدئه بأي عمل فيقول: بسم الله الرحمن الرحيم، بل جعل الله تعالى الغاية من إنزال هذه الرسالة المحمدية هو نشر الرحمة للعالم أجمع وليست للمسلمين وحدهم فقال تعالى: ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾(١) ويقول: ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾(٢) وجاءت السنة النبوية لتوضح هذه المعاني السامية من خلال السنة القولية، والسنة العملية، فقد وصف الرسول -صلى الله عليه وسلم- نفسه بأنه « نبي الرحمة »(٣) كما وضع - صلى الله عليه وسلم - قاعدة في غاية من الأهمية تقضي بأنه « من لا يَرْحَم لا يُرْحم »(٤) وأن الله لا يرحم من لا يرحم المخلوقات إلى غير ذلك من الأحاديث التي لا يمكن حصرها هنا، إضافة إلى أن سيرته -صلى الله عليه وسلم- كانت تطبيقاً لهذه الرحمة حيث كان يؤذي من قبل قومه بشتى أنواع الأذى والإهانة. ومع ذلك يمتنع عن أن يدعو عليهم، أو يطلب من الله تعالى أن يهلكهم بصاعقة في الدنيا، بل كان يدعو

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، الحديث رقم (٢٣٥٥) وأحمد في مسنده: ٤/١٣٨، ٣٩٥، ٤٠٥.

(٤) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب، رقم الحديث ٥٩٩٧ ومسلم في صحيحه كتاب الفضائل الحديث رقم ٢٣١٨ وأحمد ٢ / ٢٢٨، ٢٤١، ٥١٤.

لهم ، ويرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله(٥) . وينتصر في فتح مكة ويرى كل أعدائه الذين آذوه فيقول لهم« اذهبوا فأنتم الطلقاء »(٦) .

ومع كل ذلك لم ينج الإسلام من هجمات الأعداء، فوصفوه بالقسوة في تشريعاته ولاسيما في الحدود، وبالعنف في استعماله القوة، وأنه انتشر بالسيف .

ونحن في هذا البحث نتحدث عن « القوة » في الإسلام، وكيفية استعمالها، وعن وسائل نشر الإسلام هل هي السيف أم غيره، وكذلك نتكلم عن الجهاد في الإسلام باعتباره أهم مظهر من مظاهر استعمال القوة باذلين جهدنا للوصول إلى ما نصبو إليه .

والله ولي التوفيق.

---

(٥) فقد ثبت في الصحيحين أن الله تعالى أنزل إليه – ﷺ – ملك الجبال ليطبق عليهم الأخشبين إن أراد ، لكنه رفض ذلك ، ودعا لهم ، انظر : صحيح البخاري كتاب بدء الخلق . الحديث رقم ٣٢٣١ ، ومسلم ، كتاب الجهاد – الحديث ١٧٩٥ .

(٦) انظر : البداية والنهاية للحافظ ابنكثير ، ط . مكتبة المغارف ، بيروت : ٤/ ٣٠١ .

مفهــوم القــوة في اللغــة

ومواردها في القرآن والسنة ، وفي الاصطلاح

أولاً : معنى القوة في اللغة :

القوة من« قوى »، قال ابن سيده : القوة : نقيض الضعف، والجمع قُوى، وقِوى – بضم القاف وكسرها – ، ويكون ذلك في البدن والعقل». وذكر ابن منظور وغيره أن « القوة » هي الخصلة الواحدة من قوى الحبل، وقيل: هي الطاقة الواحدة من طاقات الحبل، أو الوتر. ويقال: ليس له أية قوة أي: أية طاقة(٧) .

ثانياً : مواردها في القرآن الكريم والسنة ومعانيها :

فقد تكررت لفظة« القوة » ومشتقاتها في القرآن الكريم ٤٢ مرة، أطلقت فيها على القوى المادية، أو القوى المعنوية، وعلى مجموعهما، واستعرضت من خلالها مفاهيم الأمم السابقة حول القوة، وناقشتهم في حصر معناها في القوة المادية سواء كانت القوة العسكرية، أو القوة العمرانية ، أو التوسعية، فردت عليهم بأن القوة الحقيقية هي القوة المعنوية والإيمانية مع القوة المادية، وأن العبرة بالقوة بنتائجها وغاياتها في إرضاء الله تعالى وتعمير الكون على ضوء منهج الله تعالى، كما أن القوة لا تنحصر في الدنيا، بل هي لله تعالى في الدنيا والآخرة.

فقوله تعالى: ﴿ يايحيى خذ الكتاب بقوة ﴾(٨) عناه بجد وعون من الله تعالى، وقوله تعالى لموسى﴿ فخذها بقوة ﴾(٩) أي خذ الألواح بقوة في دينك وحجتك، كما ناقش القرآن هؤلاء المغتربين بقوة المال، أو العمران، أو الجند ، فمثلاً حينما اغتر قارون بقوته المالية والعلمية حيث كان له من الخزائن ما إن

---

(٧) لسان العرب ، ص ٣٧٨٧ والقاموس المحيط : ١٧١٠ ، ومختار الصحاح : ص ٥٥٨ والمصباح المير : ٢/ ١٨١ مادة : « قوى ».

(٨) سورة مريم : الآية ١٢ .

(٩) سورة الأعراف : الآية ١٤٥ .

مفاتيحها لتنوء، ويثقل حملها بجماعة أولى قوة، فقال معتزاً بنفسه وعلمه: ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾(١٠) ولكن قومه المؤمنين نصحوه بأن لا يغتر، ولا يفسد، بل يصلح بماله وعلمه آخرته ودنياه، وأن يحسن ويعمر الأرض بالخير على ضوء منهج الله تعالى: ﴿إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابْتَغِ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾ ولما لم ينفعه النصح بل زاده غروراً وأخذته العزة بالإثم ، قال تعالى في حقه﴿أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾(١١) إلى أن أنتهى الأمر إلى أن الله تعالى خسف به وبداره الأرض دون أن يجد له ناصراً أو راداً لأمر الله تعالى.

فهذه الآيات وغيرها تبين لنا بكل وضوح بأن القوة-أياً كان نوعها- يجب أن توجه نحو الإصلاح والإحسان وتعمير الكون ، وليس نحو التخريب والإفساد، كما أن القوة مهما بلغت فإن فوقها القوة القاهرة الغالبة التي لا يعرف لها حدود ، وهي قوة الله تعالى.

ثم إن الآيات القرآنية تدل على أن القوة إن هي إلا وسيلة معتبرة بغاياتها، ولذلك إذا حققت الخير وعمرت الكون على ضوء منهج الله فهي القوة المحبوبة المطلوبة في الإسلام، وإلا فهي قوة جاهلية تفسد ولا تصلح ، وتخرب ولا تعمر، وتنتهي بالموت والدمار كما نراها اليوم، كما أن الآيات القرآنية تدل بكل وضوح على أن القوة في أيدي البشر أمانة، واستخلاف من قبل الله تعالى، لأن مالكها الحقيقي هو الله تعالى. إذن فليس للإنسان الحق ومطلق الحرية في استعمالها حسبما يحلو له ويشتهي، بل لابد أن توجه لتحقيق

---

(١٠) سورة القصص : الآية ٧٨ .

(١١) سورة القصص الآيات الخاصة بهذه من٧٦ إلى ٨٤ .

الهدف المنشود في تحقيق السلم، والأمن والأمان والاطمئنان للفرد والمجتمع والأمة، بل أشارت الآيات إلى أن القوة إن هي إلا بمثابة سور خارجية للحماية ، وإلا فإن الاطمئنان الحقيقي أمر داخلي لا يتحقق بالقوة وحدها مهما بلغت ، وإنما يتحقق بالإيمان، والذكر قال تعالى ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾(١٢) .

ومن هنا يربط القرآن الكريم حتى إعداد القوة بهدف سام حيث يقول القرآن الكريم (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ... وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾(١٣) حيث نرى بنص الآية أن إعداد القوة ليس بهدف الاعتداء ، ولا لترهيب الآمنين المسالمين، وإنما لإرهاب أعداء الله تعالى حتى لا يهاجموا المسلمين، ولذلك إذا جنحوا للإسلام ، أوالسلام فإن الرسول صلى الله عليه وسلم – وبعده إمام المسلمين–مطالب بالجنوح إليه مهما كانت هناك مخاوف وتوجسات منهم، فليتوكل على الله تعالى، هذا بلا شك إذا لم يكن الأعداء قد اغتصبوا أراضينا وحقوقنا – مثل اليهود في فلسطين -- وإلا فلابد من رد الحقوق ثم نسالمهم على أن يعيشوا فيما بيننا لهم ما لنا وعليهم ما علينا . –كما أوضحتها السنة، وكتب الفقه– .

ثم إن علماء التفسير قد فسروا «قوة» في الآية الكريمة بعدة معاني لا مانع من إرادتها، فقد فسرها بعضهم بالسلاح ، وبعضهم بالرمي ، وبعضهم باتفاق الكلمة والتصافي، وبعضهم بالثقة بالله تعالى والرغبة إليه(١٤) ، وفي نظرنا إن لفظة «قوة» جاءت منكرة تدل على مطلق الماهية تشمل كل ما يعتبر قوة، ولا شك أن في مقدمتها الإيمان القوي والثقة المطلقة بالله تعالى وحب الاستشهاد وعدم المبالاة بالموت، ثم وحدة الكلمة، وتوحيد الصف، والاعتصام بحبل

---

(١٢) سورة الرعد : الآية ٢٨ .

(١٣) سورة الأنفال : الآية ٦٠ – ٦١ .

(١٤) النكت والعيون للماوردي ، ط .الكويت ٢/ ١١٠ وتفسير ابن عطية ، المسمى : المحرر الوجيز ، ط . ٦/ ٣٥٦ – ٣٥٧ وأحكام القرآن لابن العربي ط . دارالمعرفة ٢/ ٨٧٢ .

الله، ثم القوة المادية من سلاح ومعدات عسكرية واقتصادية، وكل ما يعتبر قوة للفرد أو للجماعة، يقول ابن عطية: «المخاطبة في هذه الآية لجميع المؤمنين» وذهب الطبري إلى عموم اللفظة.. وهو الصواب .. فالمحمول عليه- من الحيوان- والسلاح كله، والملابس الباهية، والآلات، والنفقات كلها داخلة في القوة، وأمر المسلمون بإعداد ما استطاعوا من ذلك..»(١٥) ويعول ابن العربي: «فأمر بإعداد القوى والآلة في فنون الحروب التي تكون لنا عدة، وعليهم قوة، ووعد على الصبر والتقوى بإمداد الملائكة العليا»(١٦) .

وكذلك الأمر في السنة النبوية حيث تكررت لفظة «القوة» ومشتقاتها كثيراً وهي لا تخرج عن معانيها السابقة، منها قوله-صلى الله عليه وسلم-: «أعوذ بعزة الله وقوته من شر ما أجد»(١٧) وقوله -صلى الله عليه وسلم: «فإن معك عدداً أو قوة على الحق»(١٨) .

ثالثاً : مفهوم القوة في الاصطلاح:

يمكن أن نعرف بالقوة من خلال الأيديوجيات التي تعالج القوة، والتفسيرات التي تنطلق منها، ومن هنا يمكن أن نعرف بالقوة من خلال مدرستين:

المدرسة المادية بجميع شعبها سواء كانت ماركسية، أم ليبرالية أو غير ذلك فهي جميعها تحصر القوة فيما هي في مقدور الإنسان، وبالتالي تخرج عن نطاقها القوى الغيبية والروحية وما وراء عالم الطبيعة.

وأما التفسير الإسلامي للقوى فهو كما رأينا لا يحصر القوة في هذا النطاق الضيق ولا يحبسها بين جدران الماديات، وإنما لتشمل قوى هائلة، وجنوداً لرب العالمين لا يعلم مداها إلا الله، قال تعالى: ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾(١٩)

---

(١٥) تفسير ابن عطية - المسمى المحرر الوجيز - : ٦/٣٥٦ .
(١٦) أحكام القرآن لابن العربي ٢/٨٧٢ .
(١٧) رواه الترمذي في الطب ٢٩ .
(١٨) رواه أحمد في مسنده ١/٦٧ .
(١٩) سورة المدثر الآية ٣٢ .

وقال تعالى :﴿ وأنزل جنوداً لم تروها ﴾(٢٠) وقال﴿ إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداًلم تروها . . ﴾(٢١) .

فعلى هذا فالقوة في نظر الإسلام هي كل الطاقات البشرية الممكنة المستمدة من الله تعالى، والمستفادة من جميع ما في هذا الكون، بالإضافة إلى القوى المعنوية والغيبية التي يؤيد الله تعالى بها عباده .

قانون السببية (أو كيفيَّة الحصول على القوة) :

ثم إن الله تعالى ربط هذه القوى بأسبابها ، فليس تحقيق القوة يأتي من فراغ، وإنما ربط القوة المادية بالقدرة على التمكن في الأرض، والإفادة من هذا الكون، ولذلك يكرر الله تعالى هذه العلاقة، وقانون السببية في القرآن الكريم كثيراً، بل يشير إلى أن سبباً واحداً بعينه لا يعني الحصول على جميع المسببات، بل لابد من البحث عن السبب الظاهري لكل شيء ، ولذلك يكرر الله تعالى لفظ« سبباً » في قصة تمكين ذي القرنين ثلاث مرات بلفظ النكرة للاستدلال على تنوع معانيه – كما قال علماء البلاغة والتفسير(٢٢) .

فقد ذكر القرآن الكريم أن سبب تمكين ذي القرنين في الأرض هو أن الله وفقه للأخذ بالأسباب فقال تعالى :﴿ إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً فأتبع سبباً ﴾ ثم ذكر بأنه اتجه نحو المغرب وأنه في هذا الاتجاه أخذ بالأسباب الخاصة الممكنة له، كما ذكر أنه اتجه نحو المشرق، فوفق أيضاً لأنه أخذ بالأسباب الممكنة التي تسهل له الوصول إلى ما أراده، ثم ذكر القرآن

---

(٢٠) سورة التوبة : الآية ٢٦ .

(٢١) سورة الزحزاب : الآية ٩ .

(٢٢) حيث قالوا : إن تكرار النكرة دليل على تغير معناها ، على عكس المعرفة إذا كررت يكون المراد بها المعنى الأول نفسه ، وقد أخرج الحاكم (٢/٢٥٨) من الحسن قي قول الله تعالى : ﴿ إن مع العسر يسرا ﴾ قال : خرج النبي ﷺ – مسروراً فرحاً وهو يضحك ، وهويقول : « لن يغلب عسر يسرين » .. ورجاله ثقات . وقد فسر العلماء ذلك بأن : « العسر » تكرر معرفاً فأريد بهمَا معنى واحد ، أما اليسر فقد تكرر منكراً فأريد بهما معنيين ، فالعسر بالنسبة للمؤمن واحدة ، وهو العسر في الدنيا فقط ، وأما اليسر فاثنان ، وهو اليسر في الدنيا واليسر في الآخرة . انظر :تفسير الماوردي ، طبعة الكويت (٤/٤٧٦ – ٤٧٧) .

الكريم أنه أتبع أسباباً جديدة في التصنيع وبناء السد غير الأسباب التي اتبعها في وصوله إلى المشرق، أو المغرب ، كما بين القرآن أنه اعتمد على القوى المادية، والقوى المعنوية بل فضل الأخيرة على الأولى فقال: ﴿ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة.. ﴾(٢٣) .

وكما أن القوة المادية لها أسبابها الظاهرة مع ربطها عقيدياً بالله تعالى فكذلك القوى المعنوية الغيبية من عند الله تعالى لا تحصل للإنسان إلا مع أخذه بشروطها الأساسية، وهي الإيمان والعبودية الخالصة لله تعالى: ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ .

التوازن بين الأسباب الظاهرة ،والسبب الحقيقي:

فقد ترسخ في ذهن المؤمن من خلال مبادئ دينه العظيم ربط المسببات بأسبابها الظاهرية دون إلغاء دور السبب الحقيقي -وهو الله تعالى- وهذا التوازن الغريب الذي حدث في العقل المسلم لم يسبق له مثيل، وذلك لأن النظريات البشرية -في عمومها- إما أن تلغي دور البشر والأسباب الظاهرة، أو تلغي دور الله تعالى لكن الإسلام أقر الاثنين ووضع لكل واحد منهما إطاره الحقيقي، فقدرة الله في نظر عقل المسلم مطلقة لا غالب عليها ، ولكن الله تعالى وضع بحكمته سنناً وقوانين يسير الكون عليها ، ولو أراد إلغاءها فهو قادر على ذلك ، وأما قدرة الإنسان فهي داخل هذا الإطار الذي أتاحه الله له وأمره بأن يأخذ بهذه الأسباب والسنن حتى يصل إلى النتيجة ، فقال تعالى: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾(٢٤) إذن فالعمل من الإنسان ، والنتيجة مترتبة عليه سلباً وإيجاباً ﴿جزاءً بما كانوا يعملون﴾ ولكن هذه القدرة البشرية أيضاً مخلوقة لله تعالى .

والأخذ بالسببية التي قامت عليها الحضارة الحديثة مذهب إسلامي متميز

---

(٢٣) اقرأ : الآيات ٨٣ – ٩٨ من سورة الكهف .

(٢٤) سورة التوبة : الآية ١٠٥ .

طبقه المسلمون، وبنوا عليه حضارتهم بالإضافة إلى اعتمادهم الكلي على الله تعالى، فقد كان هذا الكشف الإسلامي في ذلك الوقت والأخذ بشروطه المنهجية كسباً كبيراً للعقل البشري الذي تاه بين هاتين النظريتين المتطرفتين ، وإضافة قيمة مكنته من إعادة التشكل في صيغ أكثر قدرة على العطاء والإبداع.

فقد استطاع القرآن الكريم أن يجتاز بالعقل المسلم مرحلة النظرة التبسيطية، المسطحة المفككة التي تعاين الأشياء والظواهر كما لو كانت مستقطعة معزولة منفصلاً بعضها عن بعض ، وتمكن من خلال التركيز على هذه السلبية–أن يعيد تشكيل العقل المسلم على صيغة عقلية تركيبية تملك القدرة على الرؤية الاستشرافية التي تطل من فوق على حشود الظواهر بحثاً عن العلائق والارتباطات، ووصولاً إلى الحقيقة المرتجاة ، بل إن إحدى طرائق القرآن المنبثة عبر سوره ومقاطعه من أقصاها إلى أقصاها هي التأكيد على ضرورة اعتماد هذه الرؤية السببية للظواهر والأشياء من أجل الوصول إلى معجزة الخلق ووحدانية الخالق .. ومن خلال هذا التأكيد .. أصبح العقل المسلم يرى في رؤية كهذه ضرورة من الضرورات .. وغدا الكون والعالم والطبيعة والوجود في مقابل هذا سلسلة من الظواهر والمعطيات يرتبط بعضها ببعض بأوثق الأسباب(٢٥) .

أنواع القوة وعناصرها :

حينما تذكر القوة–ولا سيما مع مقارنتها بالإسلام أو إضافتها إليه– فإنه يتبادر الذهن إلى القوة العسكرية وبالأخص الجهاد والقتال في سبيل الله مع أن القوة في الإسلام أشمل من ذلك بكثير، وأن وسائل نشر الإسلام لا تنحصر فيه، بل وما الجهاد إلا إحدى الوسائل الأساسية لإزالة العقبات في سبيل نشر الدعوة.

فإذا كانت القوة لدى المدرسة المادية والليبرالية تكمن في قوة العلم، والسياسة، والعدة العسكرية، والتكنولوجيا المتقدمة، والتوسع ونحو ذلك فإن

---

(٢٥) حول إعادة تشكيل العقل المسلم للدكتور عماد الدين خليل، كتاب الأمة ٤٠) ص (٤٩ – ٥٠)

القوة في الإسلام يضاف إليها مع ماسبق -القوة المعنوية والفكرية، والقوة الروحية، والأخلاقية، ومن هنا يمكننا أن نذكر ضمن أنواع القوى ما يأتي:

١ - قوة الإيمان والفكر، ووحدة الصف والتوجه:

وهذا بلا شك من أقوى أنواع القوة، إذ بدون إيمان برسالة ما، وبدون فكر واضح مستنير لا يمكن لأية أمة أن تتحرك أو تنهض، فالمحركات الأساسية لتحريك الشعوب هي الإيمان، وإلا تبقى بدون دافع قوي يحرك كيف يكون الإقدام؟ وأنى تقدم التضحيات والقرابين؟ فالإنسان المؤمن مستعد في سبيل عقيدته الحقة أن يضحي بنفسه، وماله، وولده، بل لا يتم الإيمان إلا إذا أحب الله ورسوله أكثر من نفسه، وولده وماله، -كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة- ومن هنا فالقوة في نظر الإسلام تفقد قيمتها إذا لم تكن مرتبطة بالعقيدة، وهي مصدر القوة والصبر والثبات، فقد استطاعت القلة المستضعفة في مكة أن تصمد بعقيدتها ثلاثة عشر عاماً في مواجهة أعتى الطغاة يسومونهم سوء العذاب، ويسلطون على أجساد هؤلاء المستضعفين سياط الوحشية والهمجية، بل مزقوا أجساد بعضهم، فما زادهم إلا قوة وصبراً، ثم واجهت هذه الفئة القليلة المؤمنة جحافل الكفر والبغي، وانتصرت عليهم بسبب تسلحها بهذه العقيدة الحقة التي وجهتها أيضاً نحو الأخذ بجميع الأسباب المتاحة، حتى استطاعت أن تسقط إمبراطوريتين في آن واحد، وفي أقصر زمن(٢٦).

ولو ألقينا نظرة على مسيرة الدعوة الإسلامية ونضالها الطويل، لما رأينا أنها اعتمدت فيها مرة واحدة على القوة المادية وحدها، فبدءاً من معركة بدر إلى معارك اليرموك والقادسية، وحطين، وعين جالوت، كانت تعتمد أساساً على قوة العقيدة مع القوى المادية المتاحة لها، وأن الانتصارات

---

(٢٦) يراجع: العقيدة والقوة معاً للأستاذ محمد عبد الله السمان، ط. دار الجيل بيروت، ص ٨ وما بعدها.

الإسلامية دائماً كانت في ظل العقيدة القوية، كما كانت هزائمنا دائماً عند التخلي عن منهجها، والقرآن الكريم يشير إلى ذلك بوضوح، حيث يذكر أن الرعيل الأول نالهم نوع من الهزيمة بسبب إعجابهم بكثرتهم فيقول تعالى: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين﴾(٢٧) .

فقد كانت قوة العقيدة هي التي جعلت المؤمن المجاهد لا يخاف الموت، ولا يبالي على أي جنب كان لله مصرعه، ومن هنا لايعرف الفرار ولا التولي يوم الزحف، وهي التي تدفع مثل حمزة بن عبدالمطلب يقود سرية من ثلاثين رجلاً لملاقاة ثلاثمائة شخص من قريش، وأن تهزم حوالي ثلاثمائة مؤمن جيش كفر قوامه ألف في بدر، وهكذا .. فتأريخنا حافل بهذه الأمثال، وكذلك العكس، حيث حينما يبدأ ضعف في صفوف المسلمين تحدث الهزيمة، فقد احتل الصليبيون القدس الشريف في(٤٨٢هـ) نظراً للفرقة والنزاع ووجود خلافتين: الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية الزائفة في مصر، ولما عاد المسلمون إلى دينهم ووحدوا صفوفهم بقيادة «صلاح الدين الأيوبي الكردي» انتصروا على الصليبيين، وكذلك الأمر في العصر الحديث حيث استطاع اليهود وقوى الاستعمار أن تحتل قلب العروبة والإسلام، والأرض المباركة ، وقبلتنا الأولى، وثالث الحرمين الشرفين، وذلك بسب بعدنا عن الإسلام، وعدم اعتصامنا بحبل الله المتين، وبسبب تفرقنا وتمزقنا، وانتشار التيارات والأيدلوجيات المختلفة فينا، وبالتالي عدم وقوفنا صفاً واحداً كما أمرنا الله تعالى﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾(٢٨) ﴿ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾

وحينما بدأت الصحوة الإسلامية، وانتشرت الروح الإسلامية في فلسطين

---

(٢٧) سورة التوبة الآية : ٢٥ ، ٢٦ .
(٢٨) سورة الصف : الآية ٣ .

مرة أخرى بدأت الانتفاضة التي انطلقت من المساجد حتى سميت في بدايتها بثورة المساجد فهزت كيان العدو، وزعزعت مخططاته.

والقضية الأفغانية خير دليل على ذلك، فقد وقف شعب أعزل إلا من إيمانه وعقيدته أمام أكبر قوة وأعتاها ، فرفعوا شعار الإسلام، ونادوا بالجهاد، وقاتلوا بأبسط أنواع الأسلحة المتخلفة، وصمدوا بعقيدتهم تسع سنوات حتى أجبروا القوات الروسية الغازية بقبول الانسحاب، وأن يعترف جورباتشوف بأن أكبر المشاكل التي تواجه الاتحاد السوفيتي هي مشكلة أفغانستان. والأمثلة على ذلك كثيرة.

وقد شاهدنا أيضاً انتصارات المجاهدين الشيشان عام ١٩٩٦ م على ثاني أكبر قوة في العالم (وهي روسيا) حيث هزموها شر هزيمة مع أن الشيشان بلد صغير وأهله كانوا أعزل مجردين إلا من العقيدة والإيمان، والأخذ بالأسباب المتاحة لهم.

ولا تزال القوة المعنوية وقوة الفكر الموجه تمثل نسبة لا تقل عن ٥٠٪ من معنويات الجيش المحارب، وقدرته على الانتصار، بل إن الانتصارات العسكرية والاقتصادية إن هي إلا انعكاس لقوة الفكر، يقول (خورشوف) «إن النجاح الاقتصادي هو أقوم مقياس لسلامة الأفكار»(٢٩) غير أن نجاح اقتصاده لم يدم حيث تراكمت مشاكله على رأس جورباتشوف -كما نرى- ويقول (جورج كينان) الدبلوماسي الأمريكي في كتابه (روسيا والذرة والغرب) لم يعد السلاح أو عائدات البترول بكافيين في تدعيم نفوذ أحد المعسكرين على الآخر، وترجيح كفة أحدهما على الأخرى، وإنما هي الأفكار وحدها(٣٠).

ومن هنا لا يقبل منا القرآن أن نكون صفوفاً مختلفة، وإنما لا بد أن نكون صفاً واحداً موجهاً﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان

---

(٢٩) مشكلة الثقافة للأستاذ مالك بنني ، ط . دار الفكر ، ص ١٥ .
(٣٠) مشكلة الثقافة للأستاذ مالك بننب ، ص ١٥ .

مرصوص ﴾(٣١) فلم يستعمل القرآن حتى توحيد الصفوف ، وإنما الصف الواحد بعقيدته القوية وإتجاهه الواحد في الظاهر والباطن، من حيث التوجه إلى قبلة واحدة، ورب واحد، فقد أثبت العلم الحديث أن التوجه الواحد يؤثر حتى في عالم الجماد، ويمثل لذلك بالمغناطيس حيث هو حديد لكنه نتيجة عملية صهر خاص وتنظيم شعيراته الموجبة نحو اتجاه واحد، وشعيراته السالبة نحو اتجاه واحد أصبح قادراً على أن يجذب ويسحب ويصبح متبوعاً لا تابعاً، ولذلك علق على ذلك المرحوم الرافعي في «وحي القلم» بأن هذا التنظيم والتوجه الواحد إذا كان مؤثراً في عالم الجماد فكيف لا يؤثر في المجتمع الإنساني، إذن فالمجتمع القوي المتماسك هو القوي بوحدة عقيدته وشعاراته وتوجهاته، يقول الإمام البنا: « .. إن أول درجة من درجات القوة: قوة العقيدة والإيمان، ويلي ذلك قوة الوحدة والارتباط ، ثم بعدهما قوة الساعد والسلاح، ولا يصح أن توصف جماعة بالقوة حتى تتوفر لها هذه المعاني جميعاً، وإنها إذا استخدمت قوة الساعد والسلاح وهي مفككة الأوصال مضطربة النظام، أو ضعيفة العقيدة خامدة الإيمان فسيكون مصيرها الفناء والهلاك »(٣٢) .

٢ - القوة المادية :

وهي القوة العسكرية، والبشرية والعلمية والسياسية والاقتصادية، وبإيجاز تسخير كل ما يمكن تسخيره في هذا الكون لأجل معركة المصير والبقاء، أو النهوض والارتقاء، أو على حسب قواعد الإسلام لتعمير الكون على ضوء منهج الله تعالى، فهذه القوى المادية لا يغفلها الإسلام، بل أمر المسلمين بالإفادة ليست من الأرض فحسب، وإنما من جميع ما في السموات والأرض، كما دلت على ذلك آيات قرآنية كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض.. ﴾(٣٣) ثم فصل فقال: ﴿الله الذي خلق

---

(٣١) سورة الصف : الآية ٣ .
(٣٢) الرسائل : ط . دار الشهاب ، ص ١٦٩ .
(٣٣) سورة لقمان : الآية ٢٠ .

السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار.. ﴾(٣٤) .

وفي نظر الفقهاء المسلمين أن العلم بكيفية الإفادة من هذه الطاقات الهائلة، واستخراجها لخدمة المسلمين، وتعمير الكون من فروض الكفايات كما صرح بذلك الغزالي وغيره(٣٥) .

وعناية الإسلام بالعلم المادي والتكليفي الشرعي فاقت كل التصورات حيث تنزل أول آية في القرآن الكريم تحمل في طياتها الأمر بالقراءة والعلم، وتسمى بسورة اقرأ ويقدم القرآن الكريم العلم بالشهادة قبل الشهادة نفسها﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾(٣٦) وذلك لأن العقيدة في نظر الإسلام لا تكون عن جهل ولا عن تقليد، ثم تأتي الآيات القرآنية -على الرغم من أن القرآن كتاب هداية- لتذكر كثيراً من العلوم والصناعات والإعجازات العلمية، وتسمى إحدى سورها بالحديد، وتبين بأنه كما أن القرآن منزل من السماء فكذلك الحديد ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس.. ﴾(٣٧) ، كما تسمى إحدى السور بأصل نشأة الكون وهو الدخان إضافة إلى أسماء النجم والقمر، والشمس والقلم، والتكوير، والانفطار، والانشقاق، والبروج، والفجر ، والليل والضحى، وغيرها. ولا يسع المقام لمدى هذه العناية الإسلامية بالعلم والصناعات قبل أن تعرف أوروبا أبجدية العلوم(٣٨) .

---

(٣٤) سورة إبراهيم : الآية ٣٢ - ٣٣ .

(٣٥) يراجع : ر ياء علوم الدين (١/ ٢٩٠٠٠) ومقدمة أيها الولد بتحقيق : د . علي القره داغي ، ص ١٠ ، ٤٥ .

(٣٦) سورة : الآية .

(٣٧) سورة الحديد : الآية ٢٥ .

(٣٨) يراجع : الرسول والعلم لفضيلة الدكتور القرضاوي ، ط . مؤسسة الرسالة ،والتعليم ومحو الزمية الوظيفي للدكتور علي محيي الدين القره داغي ، ط ١ دار الحرمين .

بالإضافة إلى هذه القوى المعنوية والفكرية، والمادية فإن المسلم ينظر نظرة واسعة جداً إلى قوة الله تعالى القوى القادر القاهر الذي إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فلا راد لقضائه، ولامانع لعطائه، ولا يعلم جنود ربك إلا هو، ومع أن المؤمن يأخذ بجميع أسباب القوة لكنه مع ذلك قلبه مع الله، وبصره إلى السماء يستمد النصر من عنده، فيتضرع ويدعو حتى يأتيه المدد من لدنه، وينزل عليه سكينته ونصره المبين فقد قام الرسول –صلى الله عليه وسلم– بترتيب جيشه، والإفادة من مشورة أصحابه حتى من حيث الموقع حيث أخذ الموقع الاستراتيجي، ووضع الماء وراءه حتى يحرم العدو منه، وجعل اتجاه العدو في مقابل الشمس إلى غير ذلك من الوسائل الممكنة المتاحة، وكان الرسول –صلى الله عليه وسلم– وصحابته لم يغفلوا طرفة عين عن ذكر الله بقلوبهم، ثم رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم– يده نحو السماء يدعو ويبكي ويتضرع. فقد روى مسلم وأحمد بسندهما عن عمر قال: « لما كان يوم بدر، نظر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله القبلة، ثم مدَّ يديه فجعل يهتف بربه: « اللهم أنجز لي ما وعدتني. اللهم آت ما وعدتني. اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض » فمازال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه.. فأنزل الله عز وجل: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾(٣٩) فأمده الله بالملائكة »(٤٠) .

ومن هنا فالقوى المتاحة لدى المسلمين لم تتوافر لغيرهم فهي قوى متعددة شاملة متكاملة، وقد تنبه أعداء الإسلام إلى هذه القوى، فحاولوا إضعافها، بل القضاء عليها بشتى الأساليب، فقد حاول اليهود منذ وقت مبكر إضعاف هذه

---

(٣٩) سورة الأنفال: الآية ٨.

(٤٠) صحيح مسلم، كتاب الجهاد، الحديث رقم (١٧٦٣) ومسند أحمد (١/ ٣٠، ٣٢).

القوى، ولا سيما القوى المعنوية -بشتى أنواعها- حيث حاولوا التشكيك في قيادة الرسول صلى الله عليه وسلم - وقدوته من خلال تشكيكهم في زواجه بزينب وإثارة الشبهات حول هذا الزواج، ثم محاولتهم بالاتفاق مع المنافقين لإثارة النعرات الجاهلية بين الأوس والخزرج، وبين المهاجرين والأنصار في غزوة بني المصطلق، ثم إشغال القيادة وأهل بيت الرسول -صلى الله عليه وسلم- من خلال حادثة الإفك العظيم والبهتان الكبير لعائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- لكن إيمان المسلمين القوي، والتفافهم حول قيادتهم الحكيمة، وتنبيه الوحي المستمر وتذكيره إياهم كل ذلك حال دون إنجاح هذه المؤامرات البغيضة(٤١) .

وكذلك الصليبيون حينما فشلوا في الحروب الصليبية وصلوا بعد تجارب مريرة إلى أن قوة المسلمين في عقيدتهم وفكرهم، وهذا ما وصى به لويس التاسع بعد ثلاثين سنة من قيادة بعض الجيوش الصليبية، وأسره على أيدي المسلمين في المنصورة، فقد وصلوا إلى أن أنجح الغزوات هو الغزو الفكري والثقافي في الداخل الذي زعزع عقائد الكثيرين، الذين انبهروا بالغرب، وتخلوا عن كثير من مبادئهم، والذي أدى إلى احتلال معظم الدول الإسلامية، وتمزيقها ، وإسقاط الخلافة العثمانية، وتكوين دولة اليهود على أقدس أراضينا.

ولا يزال الكتاب والمؤلفون الغربيون يكتبون عن الإسلام، فيظهرون قواه المتعددة ويكشفون عناصرها الخطيرة ليبصروا بها شعوبهم ويخوفوهم بها، فهم يعلمون علم اليقين على أن المسلمين إذا عادوا إلى هذه القوى المعنوية والمادية المتوفرة لديهم واستغلوها على الوجه الأكمل لما كان هناك قوة على وجه كوكبنا هذا أن تتفوق عليها، وتغلب عليها، فقد أكد الكثيرون منهم -ولاسيما المؤرخون- على أن الإسلام قادر مرة أخرى أن يعود كقوة فعالة

---

(٤١) يراجع: تاريخ الطبري، والبداية والنهاية لابن كثير حول هذه الموضوعات. ويراجع لقصة زينب : تفسير الطبري (٢٢/٩ - ١١) وصحيح البخاري - مع الفتح (٨/٥٢٣ ، ١٣/٤١٠) وصحيح مسلم (٢/١٠٤٨) والترمذي مع تحفة الأحوذي (٩/٦٩ - ٧٦) والنسائي (٦/٥٢).

غالبة، بل إن بعضهم أكد على قدرته على إسقاط الدولتين الكبريين إن عاد المسلمون إليه، وذلك مبنى علي النظرية العلمية القائمة على أن ما وقع مرة لا يستبعد أن يقع مرة أخرى، وقد أصبحت هذه المخاوف لدى قادتهم، ومثقفيهم يحسب لها الحساب، ويؤلف فيها الكتب، وتعقد لأجلها المؤتمرات، والندوات، فقد عقدت خلال الأعوام الأخيرة (أي منذ الخمسينات) حوالي ١٦٠٠ ندوة تحت إشراف المخابرات الأمريكية فقط كلها لبحث المخاطر الكامنة لهذه الصحوة الإسلامية(٤٢) كما ألفت عدة مؤلفات علمية دقيقة لتصوير عناصر قوة التي تمكنه من بناء قوة عالمية، منها كتاب: «الإسلام قوة الغد العالمية» حيث استهدف مؤلفه تبصير بني قومه بتلك العناصر، كي يخططوا لإضعافها إن أرادوا حماية أنفسهم من الإسلام، حيث يرى مؤلفه (باول شمستز) أن المسلمين يملكون من مصادرالقوة ما لا يملكه اتباع دين آخر على وجه الأرض منها:

أولاً : يسكنون منطقة جغرافية تتحكم في العالم كله.

ثانياً : إن لديهم خصوبة بشرية تمكنهم من التفوق على غيرهم إن هم أحسنوا إعدادها وتوجيهها، فقال: «تشير ظاهرة نموالسكان في أقطار الشرق الإسلامي إلى احتمال وقوع هزة في ميزان القوى بين الشرق والغرب، فقد دلت الدراسات على أن لدى سكان هذه المنطقة خصوبة بشرية تفوق نسبتها ما لدي الشعوب الأوربية، وسوف تمكن الزيادة في الانتاج البشري الشرق على نقل السلطة في مدة لاتتجاوز بضعة عقود..» ثم يمضي الكاتب في تصوير مخاطر زيادة عدد المسلمين على الغرب قائلاً: «نورد هنا مثالاً يعطي القارئ صورة صادقة لاتجاهات مؤشر الإحصاء السكاني ذلك المثال هو مصر، لأن مصر لديها أعلى نسبة مواليد بين شعوب العالم الإسلامي» ثم ذكر عدة إحصائيات بدءاً من عام ١٨٨٧م إلى ١٩٣٧م استنتج منها استمرار الزيادة بشكل مطرد،

---

(٤٢) هذا ما ذكره الأستاذ الدكتور كمال أبو المجد في محاضرته بجامعة قطر، والأستاذ فهمي هويدي في محاضرته بفندق الخليج بقطر.

فقال: «إذا استمر معدل هذه الزيادة في الاضطراد سيبلغ بعد ٦٠ عاماً حوالي ٣٢ مليوناً.. وبعد مائة سنة سيزداد سكان وادي النيل – أي مصر– إلى ٤٩٫٦ مليون نسمة، وبعد ٣٠٠ سنة حوالي ٥٠٠ مليون، وبعد ٤٢٥ سنة حوالي ٢ مليار؛ وفي مدى ٩٦٨ سنة ٩٧٣ ملياراً من البشر»(٤٣)، ولو عاش (باول) إلى اليوم ورأى أن شعب مصر خلال خمسين سنة (أي من ١٩٣٧–١٩٨٨م) بلغ عددهم أكثر من خمسين مليوناً مع كل المحاولات المبذلوة لتحديد النسل ماذا كان يقول خوفاً وانبهاراً ؟!

وقد ذكر باول أن بقية الدول الإسلامية كتركيا، وفلسطين، والمغرب العربي تضارع مصر، وأن الخصوبة البشرية لدى العرب أكبر من الخصوبة لدى اليهود بمرتين ونصف، وأن عدد المواليد اليهود انخفض بنسبة ١٠٪ في حين أنها ارتفعت لدى العرب بنسبة ٤٪ ومن هنا فلو توقفت هجرة اليهود لأصبحت هذه الخصوبة العربية عقبة كأداء على طريق آمال الصهيونية، وكذلك تظهر الدراسات أن نسبة الخصوبة البشرية لدى المسلمين الجزائريين تفوق ما لدى الأوربيين واليهود والقاطنين في الجزائر أيضاً بنسبة أربع مرات تقريباً(٤٤).

وقد تنبه الغرب لمخاطر قلة الإنجاب محاولاً تداركها، فقد رصدت فرنسا –على سبيل المثال– في عام ١٩٨٦م أكثر من ١٥ مليار فرنك فرنسي لتشجيع الإنجاب، كل ذلك يدل على المخاطر التي نحن –المسلمين– نستجيب لها أمام الضغوط الغربية لتحديد النسل، أو تنظيمه، وهي ليست لمصلحتنا، يقول (باول): «ولا ينبعي أن ينسى أن الداعين إلى الأخذ بأسباب نمو القوة البشرية – عن طريق تشجيع النسل.. يزيدون يوماً بعد يوم، وأن تفوق أوربا في

---

(٤٣) الإسلام قوة الغد العالمية، ترجمة أ. د. محمد شامة، ط. مكتبة وهبة، ص ٥، ١٨٩، وقد ذكر أن متوسط المواليد في كل ١٠٠٠ نسمة في الباد الآتية، كما يلي:

مصر	٤٥	مولوداً	سنوياً
الهند	٣٥	»	»
انجلترا	٣٥	»	»

أي من ١٩٢٧ – إلى – ١٩٣٧

(٤٤) المرجع السابق، ص ١٩٤ – ١٩٦.

التكنولوجيا على الشرق ينقص عاماً بعد عام، لأن الشعوب الإسلامية اتجهت إلى تطوير نفسها، وبناء حضارتها الحديثة.. وتكرس جهودها اليوم لزيادة انتاجها، يساعدها في ذلك وجود المواد الخام بكثرة في بلادها، فلو رتب المرء ما يملك الشرق من أسباب القوة لبدا له أن الخصوبة البشرية التي تسبب النمو السريع في زيادة عدد السكان تأخذ مكاناً لا يستطيع المرء إغفاله بسهولة، فكثرة السكان ستحدد بطريقة حاسمة المستقبل السياسي للعالم الإسلامي، وستكون من أهم العوامل التي يرتكز عليها أمنه وسلامته»(٤٥) .

ومن هذا المنطلق نرى تركيز الغرب على تنظيم النسل وتحديده بين المسلمين، ورصد المبالغ الكبيرة لهذا الغرض ، بل جعل ذلك من شروط الموافقة على المساعدات، إضافة إلى المؤتمرات الدولية كمؤتمر السكان وغيره لتحقيق هذا الهدف الخطير.

ثم ذكر (باول) بقية عناصر القوة لدى المسلمين وهي:

ثالثاً : يملكون من الثروات والمواد الخام ما يستطيعون به بناء قوة صناعية تضارع أرقى الصناعات العالمية-إن لم تفوقها- وسوف تزداد هذه الثروات في وقت تقل فيه في البلاد الأخرى مما يجعلهم يتحكمون في توجيه الصناعة في العالم.

رابعاً : الإسلام ذلك الدين الذي له قوة سحرية على تجميع الأجناس البشرية المختلفة تحت راية واحدة بعد إزالة الشعور بالتفرقة العنصرية من نفوسهم، وله من الطاقة الروحية ما يدفع المؤمن به على الدفاع عن أرضه وثرواته بكل ما يملك مسترخصاً في سبيل ذلك كل شيء حتى روحه ، ويحرض على التضحية لها فداء لأوطان الإسلام.

أي قوة وجدانية بعثت هذه الإرادة اليوم في الشرق؟

قوة الوحدة الفكرية للإسلام، ووجود الإحساس الحي للدين الإسلامي، فهو

---

(٤٥) المرجع السابق ،ص ١٩٤ - ١٩٦ .

ينتصر في كل مكان ينزل فيه الميدان مع الأيدلوجيات الأخري« إن اتجاه المسلمين نحو مكة (قبلة المسلمين) عامل من أهم العوامل في تقوية وحدة الاتجاه الداخلي بين المسلمين، وأسلوب يضفي على جميع نظم الحياة في المجتمع الإسلامي طابع الوحدة، وصفة التماسك »(٤٦) ويقول: « وسيعيد التاريخ نفسه مبتدئاً من الشرق (الإسلامي) عوداً على بدء: من المنطقة التي قامت فيها القوة الإسلامية العالمية في الصدر الأول للإسلام، وستظهر هذه القوة التي تكمن في تماسك الإسلام، ووحدته العسكرية ، وستثبت هذه القوة وجودها إذا ما أدرك المسلمون كيفية استخراجها والعمل على الإفادة منها، وستقلب موازين القوى، لأنها (أي قوة الإسلام) قائمة على أسس لا تتوفر في غيرها من تيارات القوى العالمية.. ويتضح أن قوة القرآن في جمع شمل المسلمين لم يصبها الوهن، ولم تنجح الأحداث التي مرت على المسلمين في القرون الأخيرة في زعزعة ثقتهم به كقوة روحية تستطيع أن تجمع التيارات المختلفة التي نادى بها رجال يعدون من الصفوف الأولى التي صارعت الاستعمار الغربي على الصعيد السياسي.. إن الروح الإسلامية مازالت تسيطر على تفكير القادة، وعواطفهم »، ثم ختم كتابه بصيحات إنذار الأوروبيين هاتفاً: « إن انتفاضة العالم الإسلامي صوت نذير لأوروبا، وهتاف يجوب آفاقها يدعو إلى التجمع والتساند الأوروبي لمواجهة هذا العملاق -أي الإسلام- الذي بدأ يصحو، ويزيل النوم عن عينيه. هل يسمعه أحد؟! ألا من يجيب؟ »(٤٧) .

شعار الإسلام : القوة ولكن:

لا شك أن شعار الإسلام القوة بكل شموليتها وعناصرها ، فقد نادى القرآن الكريم في وضوح وجلاء: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة.. ﴾ (٤٨) وأمر بأخذ الأمور والأحكام بجد وقوة فقال: ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة

---

(٤٦) المصدر السابق، ص ٩٢ ويراجع مقدمة المترجم ص ٦ .

(٤٧) المصدر السابق ص ٣٥٦ ومقدمة أ. د محمد البهي، ص ٤ – ١٧ .

(٤٨) سورة الأنفال: الآية ٦٠ .

واسمعوا.. ﴾(٤٩) ، وحكى في قصة ذي القرنين قوله تعالى: ﴿ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة﴾(٥٠) ويقول النبي الكريم -صلى الله عليه وسلم- :«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير»(٥١) وكان يدعو دائماً ويعلم أصحابه أن يدعوا: «اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقواتنا»(٥٢) .

وقد أوضح الإمام حسن البنا ذلك بقوله: «أما القوة فشعار الإسلام في كل نظمه، وتشريعاته .. ، بل إن القوة شعار الإسلام حتى في الدعاء، وهو مظهر من مظاهر الخشوع والمسكنة، ولنسمع ما كان يدعو به النبي -صلى الله عليه وسلم- في خاصة نفسه، ويعلمه أصحابه ، ويناجي به ربه: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال»(٥٣) ألا ترى في هذه الأدعية أنه قد استعاذ بالله من كل مظهر من مظاهر الضعف، ضعف الإرادة بالهم والحزن، وضعف الإنتاج بالعجز والكسل، وضعف الحبيب والمال بالجبن والبخل، وضعف العزة والكرامة بالدين والقهر، فماذا تريد من إنسان يتبع هذا الدين إلا أن يكون قوياً في كل شيء شعاره القوة في كل شيء»(٥٤) .

وعلى الرغم من هذه العناية الإسلامية بالقوة وعناصرها لكن الإسلام لا يوصي باستعمال القوة المادية ضد الغير إلا إذا سدت أمامه جميع الطرق، وأوسدت في وجهه جميع الأبواب ، وأغلقت دونها جميع النوافذ، وهذا ما يدل عليه كتاب الله وسنة رسوله القولية والعملية -كما سيتضح فيما بعد- .

فاستعمال القوة العسكرية ضد الغير ليس غاية ولا هدفاً في نظر الإسلام ،

---

(٤٩) سورة البقرة : الآية ٩٣ .

(٥٠) سورة الكهف : الآية ٩٥ .

(٥١) رواه مسلم في صحيحه كتاب القدر - الحديث ٢٦٦٤ - ، وأحمد في مسنده ٣/٣٦٦ .

(٥٢) رواه الترمذي في سننه كتاب الدعوات ٧٩ .

(٥٣) رواه البخاري في صحيحه - مع الفتح - كتاب الجهاد (٦/٨٦) ومسلم كتاب الذكر (٤/٢٠٧٩) .

(٥٤) الرسائل ، ص ١٦٩ .

وإنما هو وسيلة لنشر الدعوة الحقة، وتوصيل الرحمة في العدل إلى العالمين، وتعريفهم بحلاوة الإيمان، ولذة التوحيد، وروعة التحرر من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، غير أن سنة الله تعالى جارية بأن الطغاة الجبابرة الكفرة لم يرضخوا لهذا الدين، ولا يسمحوا لنشره بين رعيتهم، وإنما شعارهم دائماً الشعار الذي قاله فرعون: ﴿ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ ثم قال: ﴿ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾(٥٥) ومن هنا فلن يسمح الطغاة العتاة الجبابرة بأية دعوة إلهية لخدمة البشرية، لأنهم يعتبرونها فساداً في الأرض، وإخلالاً بالأمن، وأن طريقهم هو الطريق الصحيح الرشيد، وأنهم لا يرون لشعبهم إلا رأيهم، فهم لا بد أن لا يكون لهم رأي إلا رأيهم، ولا هدف إلا هدف الحفاظ على كراسيهم.

ومن هنا فالمعركة بين الحق والباطل حتمية، والصراع بين الخير والشر لا محيد عنه، فتحدث الحرب، فيضطر الحق والخير أن لا يقفا مكتوفي الأيدي أمام جيوش الباطل والشر، ومحافلهما وجنودهما، وهذا النضال، وتلك المعركة التي يخوضها المسلمون ضد الكفرة الطغاة تسمى في الإسلام بالجهاد، ولذلك من الضروري أن نعرف بالجهاد على ضوء الكتاب والسنة، وأنواعه ومراتبه، وحكم الجهاد، والتوازن بينه وبين احترام النفس البشرية، وهل الجهاد غاية أم وسيلة؟ والجهاد بين الدفاع والهجوم، فهل الإسلام نشر بالسيف؟!

التعريف بالجهاد:

الجهاد لغة: مصدر جاهد يجاهد. قال ابن منظور: الجهاد محاربة الأعداء، وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول، أو فعل» (٥٦).

وأصله من الجَهْد (٥٧) بمعنى بذل كل ما في وسع الإنسان للوصول

---

(٥٥) سورة غافر الآية ٢٦ – ٢٩.

(٥٦) لسان العرب، ص ١٨٠.

(٥٧) الجهد – بضم الجيم، أو بفتحها بمعنى الطاقة، وقيل: الجهد بالفتح: المشقة، وبالضم الطاقة، والوسع، وقيل: هما لغتان في الوسع والطاقة، فأما في المشقة والغاية فالفتح لا غير. لسان العرب، والقاموس المحيط مادة «جهد».

إلى غاية سواء كان هذا البذل قولاً، أو فعلاً، أو بعبارة أخرى: سواء كان جسمياً أو عقلياً(٥٨) .

من هذه الكلمة اشتقت كلمة الاجتهاد التي يعنى بها استفراغ الفقيه جهده في الأدلة الشرعية ودلالتها ومناطها للوصول إلى حكم شرعي ، قال الغزالي: «الاجتهاد عبارة عن بذل المجهود ، واستفراغ الوسع في فعل من الأفعال، ولا يستعمل إلا فيما فيه كلفة وجهد، وفي عرف العلماء مخصوص ببذل المجتهد وسعه في طلب العلم بأحكام الشريعة. .»(٥٩) .

وقد جاء التفقه، وتعلم الأحكام الشرعية مصاحباً للقتال(٦٠) في قوله تعالى: ﴿ وماكان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذورن ﴾(٦١) .

وقد اختلف المفسرون في سبب نزولها، فقال بعضهم: إن المؤمنين لما سمعوا آيات الأمر بالنفير العام، وتشجيع أهل البادية للجهاد نفروا إلى المدينة جميعاً، فنزلت هذه الآية مبينة: أنه لا ينبغي أن ينفروا جميعاً، وإنما يبقى فريق مع النبي -صلى الله عليه وسلم- ليتفقهوا في الدين ليرجعوا للدعوة، ثم يأتي فريق آخر، وقال آخرون: يكون التفقه في الغزو في السرايا لما يرون من نصرة الله لدينه، ولما يحتاجون إليه أثناء الجهاد والحركة، حيث يتكشف لهم أسرار الدين من خلال الجهاد، وبما يتجلى لهم من آياته وتطبيقاته في أثناء الحركة به، فقوام هذا الدين هو العمل، والنزول إلى ساحة الحركة، والاندماج العملي معه، ففقه هذا الدين لا ينبثق إلا في أرض الحركة والعمل، ولذلك فدراسة الكتب دراسة جادة بعيدة عن الواقع لا يجعل صاحبها فقيها(٦٢) .

---

(٥٨) المصدر السابقة ، والمعجم الوسيط (١/ ١٤٥) والمصباح المنير (١/ ١٢٣) .
(٥٩) المستصفى ، ط . دار صادر بلبنان ٢/ ٣٥٠ .
(٦٠) تفسير ابن عطية (٧/ ٧٨) وأحكام القرآن لابن العربي (٢/ ١٠٣٠) وتفسير الطبري ، وفي ظلال القرآن (٣/ ١٧٣٤ ..) وتفسير الماوردي ٢/ ١٧٥ .
(٦١) سورة التوبة : الآية ١٢٢٠) .
(٦٢) تفسير ابن عطية (٧/ ٧٨) وأحكام القرآن لابن العربي (٢/ ١٠٣٠) .

وأيا ما كان فهذه الآية تدل دلالة واضحة على مدى أهمية الفقه مع الجهاد ، ولذلك كان لفظ « الجهد » يشملهما .

وقد تكرر لفظ« الجهد » ومشتقاته في القرآن الكريم(٤١)مرة تدور حول هذه المعاني السابقة، فجاء أكثرها بمعنى القتال في سبيل الله . وبعضها بمعنى بذل الوسع والطاقة فمن الأول قوله تعالى :﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ﴾، (٦٣) وقوله تعالى :﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾،(٦٤) وبمعنى الثاني قوله تعالى :﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾(٦٥) ، وقوله تعالى :﴿ وجاهدهم به جهاداً كبيراً ﴾ (٦٦) قال ابن تيمية« وإنما جاهدهم باللسان والبيان، لأن هذه الآية نزلت في مكة »(٦٧) .

وكذلك الأمر في السنة المشرفة حيث استعمل « الجهاد » في القتال في سبيل الله مثل قوله–صلى الله عليه وسلم–« تكفل الله تعالى لمن جاهد في سبيله .. بأن يدخله الجنة » (٦٨)، وبمعنى غير القتال مثل قوله –صلى الله عليه وسلم– :« ما من أمير يلي أمر المسلمين ، ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل الجنة »(٦٩)كما سمى النبي –صلى الله عليه وسلم–: الحج (بالجهاد ، فقال :« الحج جهاد كل ضعيف »(٧٠) .

ومن هنا يمكننا القول بأن الجهاد هو استفراغ الطاقة لنشر الإسلام ، والدفاع عنه ولإزهاق الباطل ودفع الشر والفساد بكل الوسائل المتاحة النفس ، والمال ، واللسان وجميع وسائل البيان والدفاع .

---

(٦٣) سورة التوبة : الآية ٤١ .

(٦٤) سورة النساء : الآية ٩٥ .

(٦٥) سورة لقمان : الآية ١٥ .

(٦٦) سورة الفرقان : الآية (٥٢) .

(٦٧) مجموع الفتاوي ٢٨/٣٨ .

(٦٨) رواه البخاري ، كتاب الجهاد – الحديث رقم ٢٧٨٧ – (٦/٦) ومسلم ، كتاب الإمارة ١٠٤ (٣/١٤٩٦) .

(٦٩) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإمارة ٢٢ (٣/ ١٤٦٠) .

(٧٠) رواه ماجه كتاب المناسك (الحديث رقم ٢٩٠٢) (٤/٩٦٨) والنسائي كتاب الحج (٥/١٠٤) وأحمد (٢/٤٢١) .

أنواع الجهاد ومراتبه:

لو تعمقنا في نصوص الشريعة ومبادئها ، وقواعدها العامة لوجدنا أن لفظ «الجهاد» لا ينحصر في القتال في سبيل الله، بل هو شامل له ولغيره من كل ما فيه من بذل ومشقة موجهة ضد الأعداء ما دام في سبيل الله، فإذا كان الأعداء في نظر الإسلام لا ينحصرون في الناس الكفرة، فكذلك الجهاد لا يكون محصوراً في قتالهم ، بل هو يشمل جهاد الشيطان، والنفس، وسواء كان هذا الجهاد بالمال أو بالنفس، أو بالعلم والحجة والبرهان، والقلم والبنان، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية«لكن الجهاد المكي بالعلم والبيان، والجهاد المدني مع المكي باليد والحديد»(٧١).

والحق أن كل هذه الأنواع مطلوبة، بل هي في الواقع مراتب تبدأ المرحلة الأولى بجهاد النفس، وتنتهي بقتال الكفرة والمنافقين، ولذلك يعرفه ابن تيمية بقوله:«الجهاد حقيقته: الاجتهاد في حصول مايحبه الله من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان»(٧٢).

ويقول ابن القيم:«واختلف في عبارات السلف في حق الجهاد فقال ابن عباس: هو استفراغ الطاقة فيه وألا يخاف في الله لومة لائم، وقال مقاتل: اعملوا لله حق عمله، واعبدوه حق عبادته، وقال عبدالله بن المبارك: هو مجاهدة النفس والهوى» ثم أضاف إليه بأن الجهاد يختلف باختلاف أحوال المكلفين في القدرة والعجز، والعلم، والجهل، فحق التقوى ، وحق الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالم شيء، وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيء»(٧٣) ويقول أيضاً:«لما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام، وقمته، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة ، كما لهم الرفعة في الدنيا، فهم الأعلون في الدنيا والآخرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم- في الذورة العليا منه، واستولى

---

(٧١) مجموع الفتاوي (٢٨/٣٨) .
(٧٢) العبوية لابن تيمية ، ص (١٠٤) .
(٧٣) زاد المعاد ، بتحقيق : الشيخين : شعيب الأرنؤط ، وعبد القادر الأرنؤط (٣/٨) .

على أنواعه كلها فجاهد في الله حق جهاده بالقلب، والجنان، والدعوة والبيان، والسيف، والسنان، وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد وبقلبه ولسانه، ويده، ولهذا كان أرفع العالمين ذكراً، وأعظمهم عند الله قدرا» وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه وقال: ﴿ .. فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً ﴾(٧٤) فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار بالحجة، والبيان ، وتبليغ القرآن، وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام ، قال تعالى: ﴿ ياأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم .. ﴾(٧٥) فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواص الأمة، وورثة الرسل، والقائمون به أفراد في العالم .. فهم الأعظمون عند الله قدراً(٧٦) .

وقد جعل الرسول -صلى الله عليه وسلم - كلمة الحق عند السلطان الجائر من أعظم الجهاد، وأن الشهيد بسببها من أعظم الشهداء، حيث قال: «إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»، وفي بعض الروايات « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»، وفي بعض الروايات« .. كلمة حق»(٧٧) وقال -صلى الله عليه وسلم- « سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره، ونهاه، فقتله»(٧٨) .

و يقول ابن القيم: « ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعاً على جهاد العبد نفسه في ذات الله، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: « المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» (٧٩) كان جهاد

---

(٧٤) سورة الفرقان : الآية ٥٢ .

(٧٥) سورة التوبة : الآية ٧٣ .

(٧٦) زاد المعاد : (٣/ ٥) .

(٧٧) رواه الترمذي وحسنه ، كتاب الفتن (الحديث رقم ٢٢٦٤) ، ومع تحفة الأحوذي ٦/ ٣٩٥ - وأحمد في مسنده (٣/ ١٩ - ٦١) وأبو داود في سننه ، الملاحم (الحديث رقم ٤٣٢٢) - مع عون المعبود (١١/ ٤٩٩) والنسائي في سننه ، كتاب البيعة - الحديث ٤٢٠٩ - (٧/ ١٦١) وحكم بصحته الحافظ المنذري في الترغيب .

(٧٨) رواه الحاكم في المسترك وقال صحيح الإسناد (٣/ ١٩٥) .

(٧٩) رواه أحمد في مسنده (٦/ ٢١) وصححه ابن حبان ، والحاكم في المستدرك ووافقه الذهبي (١/ ١١) .

النفس مقدماً على جهاد العدو في الخارج وأصلاً له، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولاً لِتفعل ما أمرت به، وتترك ما نهيت عنه، ويحاربها في الله، لم يمكنه جهادَ عدوه في الخارج، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه، وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له متسلط عليه لم يجاهده، ولم يحاربه في الله، بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج فهذان عدوان قد امتحن العبد بجهادهما، وبينهما عدو ثالث لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده، وهو واقف بينهما يثبط العبد عن جهادهما، ويخذله، ويرجف به، ولا يزال يخيل له ما في جهادهما من المشاق، وترك الحظوظ، وفوت اللذات، والمشتهيات، ولا يمكنه أن يجاهد ذينك العدوين إلا بجهاده، فكان جهاده هو الأصل لجهادهما، وهو الشيطان قال تعالى: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾(٨٠)، والأمر باتخاذه عدواً تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته، كأنه عدو لايفتر، ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس».

فهذه ثلاثة أعداء أمر العبد بمحاربتها ، وجهادها، وقد بلى بمحاربتها في هذه الدار، وسلطت عليه امتحاناً من الله له وابتلاء ، فأعطى الله العبد مَدَداً و عُدَّة، وأعواناً وسلاحاً، وبلا أحدَ الفريقين بالآخر، وجعل بعضهم لبعض فتنة ليبلو أخبارهم ويمتحن من يتولاه ، ويتولى رسله ممن يتولى الشيطان وحزبه.. فأعطى عباده الأسماع والأبصار، والعقول والقوى، وأنزل عليهم كتبه، وأرسل إليهم رسله، وأمدهم بملائكته.. وأنه يدافع عن عباده المؤمنين ما لا يدافعون عن أنفسهم، وهذه المدافعة عنهم بحسب إيمانهم، وعلى قدره، وأمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده، كما أمرهم أن يتقوه حق تقاته، وكما أن حق تقاته أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا يُنسى، ويشكر فلا يكفر، فحق جهاده أن يجاهد العبد نفسه لُيسلم قلبه ولسانه، وجوارحه لله فيكون كله لله، وبالله، ولا لنفسه، ولا بنفسه، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده، ومعصية أمره،

---

(٨٠) سورة فاطر: الآية (٦).

وارتكاب نهبه، فينشأ له من هذين الجهادين قوة وسلطان ، وعدة يجاهد بها أعداء الله في الخارج بقلبه ولسانه، ويده، وماله، لتكون كلمة الله هي العليا »(٨١) .

وقد لخص العلامة ابن القيم مراتب الجهاد تلخيصاً رائعاً نذكره هنا، لأهميته فقال:« إذا عرف هذا، فالجهاد أربع مراتب: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين .

فجهاد النفس أربع مراتب أيضاً:

إحداها : أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه، شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه، ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله ، وأذى الخلق، ويتحمل ذلك كله لله، فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربانيين، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانياً حتى يعرف الحق، فيعمل به، ويعلمه، فمن عَلِمَ وَعَمِلَ وعلَّم فذاك يدعى عظيماً في ملكوت السماوات.

وأما جهاد الشيطان ، فمرتبتان، إحداهما جهاده على دفع ما يلقي إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان. الثانية: جهاده على دفع ما يلقى إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات ، فالجهاد الأول يكون بعده اليقين،

---

(٨١) زاد المعاد (٣/ ٥ – ٨) .

والثاني بعده الصبر، قال تعالى: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾(٨٢) .

فأخبر أن إمامة الدين، إنما تنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشبهات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات .

وأما جهاد الكفار والمنافقين، فأربع مراتب : بالقلب واللسان، والمال، والنفس، وجهاد الكفار أخص باليد، وجهاد المنافقين أخص باللسان .

وأما جهاده أرباب الظلم، والبدع، والمنكرات فثلاث مراتب : الأولى : باليد إذا قدر ، فإن عجز انتقل إلى اللسان، فإن عجز، جاهد بقلبه، فهذه ثلاث عشرة مرتبة من الجهاد ، و« من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات على شعبة من النفاق »(٨٣) .

ويمكن كذلك أن نقسم الجهاد الذي خاضه الرسول –صلى الله عليه وسلم– في مكة إلى جهاد بالحجة والبرهان في نطاق العقيدة والعادات والتقاليد والأساطير والأوهام، والذي كان من أعنف المعارك ، قال تعالى: ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق﴾(٨٤) حيث جاء الإسلام بعقيدة حقة بعيدة عن عقائدهم الباطلة، وبمباديء في العبادة والسلوك والعلاقة بين الناس، والمساواة بينهم كانت تختلف تماماً عما ترسخ في أذهانهم ، وطبقوها على أنفسهم.

وكانت أسلحة المشركين ضد هذا الجهاد قوية من حيث العدد والعدة، فقد

---

(٨٢) السجدة : آية ٢٤ .

(٨٣) أخرجه مسلم (١٩١٠) في الإمارة : باب دم من مات ، ولم يحدث نفسه بالغزو من حديث أبي هريرة ، وأخرجه أبو داود (٢٥٠٢) في الجهاد : باب كراهية ترك الغزو ، والنسائي (٣٠٩٩) في الجهاد باب التشديد في ترك الجهاد ، وراجع زاد المعاد (٣/ ١٠ – ١١) .

(٨٤) سورة ص : الآيات (٤ – ٧) .

كان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يواجههم وحده، ثم بدأ ينتشر الإسلام رويداً رويداً، وقد استعملوا ضده سلاح الدعاية، ولا سيما فهم قوم معروفون بالبيان، والشعر، ومجتمع مترف فارغ يحافظ على جلساته الرتيبة المنظمة حول الكعبة في كل يوم(٨٥) إضافة إلى ما كانت لديهم من نوادي شعرية تجمع الشعراء، وما ترد إليهم من وفود لأداء الحج والعمرة.

ولم تكتف قريش بسلاح الدعاية الضخمة، بل استعملت سلاح المساومة والتعذيب الوحشي، والإهانة النفسية بشكل منقطع النظير، ثم سلاح الحصار الاقتصادي، والمقاطعة لكل من دخل في هذا الدين الجديد مقاطعة شاملة، وقد تعب المسلمون جراءها لكنهم صبروا على ذلك، وساعدهم على ذلك إيمانهم القوي، ونزل القرآن الدائم الذي ينزل كبلسم شاف يشفي الجراح، إضافة إلى شخصية الرسول الكريم وقدوته الرائعة.

وبالإضافة إلى هذا النوع من الجهاد فقد كان جهاد التربية – الذي كان الرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم– يشرف عليها بنفسه ليغرس في قلوب الرعيل الأول الإسلام الحقيقي بشكل دقيق من أعظم أنواع الجهاد، فقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الدور العظيم الذي قام به الرسول –صلى الله عليه وسلم– حيث قال تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس..﴾ (٨٦) أي أن هذه الأمة لم تظهر بهذه القوة التي أسقطت امبراطوريتين –فجأة دون تكوين وإعداد، وإنما أخرجت إخراجاً، أي صرفت جهود كبيرة إضافة إلى عناية الله تعالى حتى أعدت هذا الإعداد، وأخرجت هذا الإخراج، فقد رباهم الرسول (ﷺ) فرداً فرداً رباهم بالقول والفعل والتطبيق والأسوة الحسنة على الإيمان القوي كالطود الشامخ، وعلى أن يدخلوا في الإسلام وقد تركوا كل ما في الجاهلية وراءهم ظهرياً، حتى تصبح قلوبهم خالية من كل شبهة، أو ريبة، فتكون كالقصعة البيضاء، ثم تملأ بالعقيدة الحقة والمباديء الإسلامية، فأعاد إليهم فطرهم السليمة، فربى عقولهم ووجدانهم، وسلوكهم، وأفكارهم ولم يكتف فيها

---

(٨٥) الجهاد في الإسلام لمحمد شديد، ط. مؤسسة الرسالة ص ٢٧.
(٨٦) سورة آل عمران: الآية (١١٠).

بالعموميات، وإنما بغرس الجزئيات ومتابعتها متابعة الزارع لزرعه ﴿ كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار.. ﴾(٨٧) .

وأما الجهاد في العهد المدني فقد أخذ -بالإضافة إلى جهاد العقيدة والتربية والدعوة - شكل تنظيم المجتمع، والقتال في سبيل الله لمن قاتلهم أولاً، ثم لما مكنوا في الأرض أمروا بالقتال لأجل نشر العقيدة ودفع دابر الفتنة حتى يكون الدين كله لله تعالى، ويطبق على المجتمع(٨٨) .

ومن خلال هذا العرض السريع يمكننا القول بأن شمولية الجهاد منبثقة من شمولية الإسلام نفسه، ولذلك نرى أن الهجرة التي كانت خاصة بمن هاجر إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم - في المدينة لم تعد على هذه الخصوصية حيث عممها الرسول -صلى الله عليه وسلم- نفسه فقال: « .. والمهاجرون من هجر ما نهى الله عنه »(٨٩) بل قال: « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية »(٩٠) .

وكذلك الشهيد في نظر الإسلام لا يقتصر على من قتل في أثناء المعركة، وإنما يشمل حالات أخرى، كما وردت بذلك أحاديث صحيحة، حتى ألف فيها الحافظ السيوطي رسالة سماها: « أبواب السعادة في أسباب الشهادة »(٩١) ، فذكر أكثر من ثلاثين نوعاً منها ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: « الشهداء خمسة: المبطون، والمطعون، والغريق، وصاحب الهدم ، والشهيد في سبيل الله » (٩٢) ، وهذا العدد ليس له مفهوم فهم أكثر من خمسة ، فقد ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن « من قتل دون ماله فهو شهيد »(٩٣) .

---

(٨٧) سورة الفتح : الآية ٢٩ .

(٨٨) يراجع في تفصيل ذلك : زاد المعاد (٣/ ٦٩) والجهاد في الإسلام لمحمد شديد ، ص ٧٩ .

(٨٩) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الإيمان الحديث (١٠) وفتح الباري (١/ ٥٣) وأحمد (٢/ ١٦٣) .

(٩٠) رواه البخاري - مع الفتح - كتاب الجهاد الحديث ٢٧٨١ (٦/ ٣) ومسلم كتاب الإمارة الحديث (١٣٥٣) وأحمد (١/ ٢٢٦) .

(٩١) حققه الأخ الدكتور نجم عبد الرحمن ، وطبعته المكتبة القيمة بالقاهرة .

(٩٢) صحيح البخاري في كتاب الجهاد - فتح الباري (٦/ ٤٢) ومسلم كتاب الإمارة (٣/ ١٥٢١) .

(٩٣) رواه أبو داود في سننه كتاب السنة ، عون المعبود ، (١٣/ ١٢١) والترمذي كتاب الديات (٤/ ٦٨١) وقال : حديث حسن صحيح ، ابن ماجه كتاب الحدود (٢/ ٨٦١) والنسائي كتاب تحريم الدم (٧/ ١٠٧) .

ومع هذه الاطلاقات فإنه مما لاشك فيه أن الجهاد بمعنى القتال في سبيل الله أفضل أنواعه، وأن الشهيد بمعنى المقتول في سبيل الله أفضل الشهداء وأعظمهم أجراً، ولذلك له أحكامه الخاصة من حيث الغسل والصلاة عليه، لا توجد لغيره ، وكذلك المهاجر بمعني المهاجر الذي هاجر إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- قبل الفتح أعظم أجراً ممن يطلق عليه اسم المهاجر، فقد قال تعالى:﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله﴾ (٩٤) وغير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على فضل هؤلاء الكبير.

ونحن في هذا البحث نلقي كثيراً من الضوء على الجهاد بمعناه الأخص، وسبب اختياره، وهو القتال في سبيل الله، فنذكر حكمه، وتقسيماته وما يدور في فلكه بإذن الله.

لماذا اختير هذا الاسم ؟

جرت عادة الافرنج في تسميتهم غزواتهم بالحرب المقدسة،في حين أن الله تعالى قد سمّى كفاح المسلمين في هذا المجال بالجهاد، وذلك لأن لفظة الحرب «war» كانت ولا تزال تطلق على القتال الذي يشب لهيبه بين الأفراد والأحزاب والجماعات والشعوب لمآرب شخصية وأغراض ذاتية، أو استكبارية،فاختير للحرب التي تكون لأجل دين الله الحق، وإعلاء كلمته ولسعادة جميع البشر وحقوقهم ولتعمير الكون كله على ضوء منهج الله:اسم الجهاد لما يدل على شمولية الجهد لكل الأحوال واستمرار الكفاح للوصول إلى ذلك الغرض، وذلك لأن لفظ الجهاد لغة وشرعاً شامل لكل الجهود التي تبذل بل هو استفراغ أقصى الجهد لتحقيق تلك الأهداف السامية، فالقتال ليس هو الهدف،وإنما إقامة شرع الله هي الهدف بأية وسيلة سواء كانت بالفكر والدعوة أم بالقتال ونحوه.

ومن جانب آخر لم يكتف الإسلام أن يسميه بالجهاد فقط بل قيده بأن

---

(٩٤) ا سورة البقرة: الآية ٢١٨.

يكون في سبيل الله وحده، وليس في سبيل فرد، أو جماعة، أو شعب ، أو أمة، أو فكر معين في حين أن جميع الحروب السابقة والحالية مادامت لم تكن في سبيل الله، فهي في سبيل الأهواء، وقد ارتبط الجهاد في الإسلام بغايته، وهي « وفي سبيل الله » حتى يكون مبرءاً عن كل هوى، أو نزعة شخصية ، أو جاهٍ أو سمعة ، فقال تعالى: ﴿ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت.. ﴾(٩٥) .

حكم الجهاد :

مادام الجهاد متنوعاً، وله مراتب، فلابد أن نذكر حكم كل نوع ومرتبته مع التفصيل في حكم جهاد الكفار، يقول ابن القيم في بيان حكم هذه الأنواع فقال: « وفرض عليه جهاد نفسه في ذات الله تعالى وجهاد شيطانه، فهذا كله فرض عين لا ينوب عنه أحد عن أحد، وأما جهاد الكفار والمنافقين فقد يكتفى فيه ببعض الأمة إذا حصل منهم مقصود الجهاد، وأكمل الخلق عند الله تعالى من كمل مراتب الجهاد كلها، والخلق متفاوتون في منازلهم عند الله تفاوتهم في مراتب الجهاد، ولهذا كان أكمل الخلق وأكرمهم على الله خاتم أنبيائه، ورسله، فإنه كمل مراتب الجهاد، وجاهد في الله حق جهاده، وشرع في الجهاد من حين بعث إلى أن توفاه الله عز وجل »(٩٦) .

ويقول الحافظ ابن الحجر: « والتحقيق أيضاً أن جنس جهاد الكفار متعين على كل مسلم إما بيده، وإما بلسانه، إما بماله، وإما بقلبه »(٩٧) .

ثم إن الفقهاء فرقوا بين نوعين من الجهاد سموها: جهاد الدفع، أي دفع الكفار عن بلاد الإسلام وذلك إذا احتْلوا شيئاً منها . وجهاد الطلب أي طلب الكفار في بلادهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: « فيجب التفريق بين دفع الصائل الظالم الكافر، وبين طلبه في بلاده »(٩٨) .

---

(٩٥) سورة النساء : الآية ٧٦ ، ويراجع كتاب « الجهاد في سبيل الله » للأستاذ المودودي ، وفي ظلال القرآن للسيد قطب (٣/ ١٤٢٤ ، ...) .

(٩٦) زاد المعاد (٣/ ١٢) .

(٩٧) فتح الباري (٦/ ٣٨) .

(٩٨) الاختيارات الفقهية لابن تيمية ، ط : دار المعرفة ص ٣١ ، ويراجع : الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض الأعيا للأخ الدكتور عبد الله عزام ، ص ١٠ .

جهاد الدفع :

أما النوع الأول : أي جهاد الدفع : فقد اتفق علماء الأمة سلفاً وخلفاً على أن الجهاد يصبح فرض عين على أهل المنطقة التي وقع عليها الاعتداء رجالاً ونساءً وعلى من والاها بقدر ما يدفع به هذا الخطر، وإليك نصوص المذاهب المعتبرة بهذا الخصوص.

يقول الكاساني الحنفي : « ... هذا-أي فرض الكفاية-إذا لم يكن النفير عاماً، فأما إذا عم النفير بأن هجم العدو على بلد فهو فرض عين يفترض على كل واحد من آحاد المسلمين ممن هو قادر عليه، لقوله سبحانه :﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ﴾(٩٩) وقوله تعالى : ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبون بأنفسهم عن نفسه ﴾(١٠٠) ولأن الوجوب على الكل قبل عموم النفير ثابت، لأن السقوط عن الباقين بقيام البعض به، فإذا عم النفير لا يتحقق القيام به إلا بالكل فبقي فرضاً على الكل عيناً بمنزلة الصوم والصلاة، فيخرج العبد بغير إذن مولاه، والمرأة بغير إذن زوجها، وكذا يباح للولد أن يخرج بغير إذن والديه، لأن حق الوالدين لا يظهر في فروض الأعيان كالصوم والصلاة »(١٠١) .

وجاء في الشرح الكبير: « وتعيّن -أي يصبح فرض عين-بفجء العدو على قوم . . قال الدسوقي :« وتعين بفجء العدو على كل أحد وإن كان ذلك الأحد امرأة . . أو رقيقا، وكذا صبي له قدرة على القتال »، ثم قال الدردير:« وتعين على من بقربهم إن عجزوا عن كف العدو بأنفسهم »(١٠٢) .

ويقول البيضاوي :« وهذا إذا لم يتخط الكفرة ديارنا وإلا تعين على الجميع »(١٠٣) .

---

(٩٩) سورة التوبة : الآية ٤١ .

(١٠٠) سورة التوبة : الآية ١٢٠ .

(١٠١) بدائع الصنائع : ٩/ ٤٣٠١ .

(١٠٢) الشرح الكبير للدردير مع حاشية الدسوقي : ط . الحلي ٢/ ١٧٤ - ١٧٥ .

(١٠٣) الغاية القصوى بتحقيق د . علي القره داغي ، ط . دار الإصلاح ٢/ ٩٤٥ .

ويقول النووي: «فإذا وطىء الكفار بلدة للمسلمين، أو أطلوا عليها ، ونزلوا بابها قاصدين ولم يدخلوا، صار الجهاد فرض عين»، أي على أهل تلك الناحية إن استطاعوا دفعهم وإلا فيجب أيضاً على الأقرب منهم منطقة، فالأقرب ، وعلى أي حال -كما يقول النووي- لا يجوز تمكين الكفار من الاستيلاء مع إمكان الدفع(١٠٤) .

ويقول ابن قدامة: «إذا نزل الكفار ببلد تعين على أهله قتالهم، ودفعهم»(١٠٥) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فأما إذا هجم العدو فلا يبقى للخلاف وجه، فإن دفع ضررهم عن الدين والنفس والحرمة واجب إجماعاً» .

وقال أيضاً: «وأما قتال الدفع فهو أشد أنواع دفع الصائل عن الحرمة والدين فواجب إجماعاً، فالعدو الصائل الذي يفسد الدين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه ، فلا يشترط له شرط، بل يدفع بحسب الإمكان.. وإذا دخل العدو بلاد الإسلام فلا ريب أنه يجب دفعه على الأقرب فالأقرب، إذ بلاد الإسلام كلها بمنزلة الواحدة»(١٠٦) .

قال أبو عبدالله الدمشقي: «واتفقوا على أنه يجب على أهل كل نفر أن يقاتلوا من يليهم من الكفار، فإن عجزوا ساعدهم من يليهم: لأقرب فالأقرب»(١٠٧) .

وهكذا الأمر عند جميع الفقهاءبدون استثناء.

وقد استدلوا على ذلك بالكتاب والسنة والإجماع والعقل:

أما الكتاب: فالآيات في ذلك كثيرة منها قوله تعالى: «انفروا خفافاً ثقالاً

---

(١٠٤) الروضة : ط . المكتب الإسلامي : ١٠/ ٢١٤ - ٢١٧ .
(١٠٥) المغني : ط . الرياض ٨/٢٤٧ .
(١٠٦) الاختيارات الفقهية ، ص (٣٠٩ - ٣١١) .
(١٠٧) رحمة الأمة في اختلاف الأئمة ط مصطفى الحلبي ص ٢٩٢ .

وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾(١٠٨) . والأمر حقيقة في الوجوب -في الراجح- ويؤكد هذا الوجوب هنا الآية السابقة عليها :﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ﴾ وذلك لأن العذاب الأليم لا يكون إلا على ترك الواجبات، أو فعل المحرمات ، يقول ابن العربي :« والصحيح أن هذه الايات غير منسوخة ، وقد تكون حالة يجب فيها نفير الكل إذا تعين الجهاد على الأعيان بغلبة العدو على قطر من الأقطار، أو بحلوله بالعُقْر، فيجب على كافة الخلق الجهاد والخروج إليه، فإن قصروا عصوا . . وإذا كان النفير عاماً لغلبة العدو على الحوزة، أو استيلائه على الأسارى كان النفير عاماً ووجب الخروج خفافاً وثقالاً، وركباناً ورجالاً، عبيداً وأحراراً . . حتى يظهر دين الله، وتحمى البيضة، وتحفظ الحوزة، ويخزى العدو ، ويستنقذ الأسرى، ولا خلاف في هذا »(١٠٩) .

ولو ألقينا نظرة على واقع الرعيل الأول لوجدناهم قد فهموا الآية على هذا المعنى وأنهم تسارعوا إلى الجهاد عند إعلان النفير وتهديد الكفار بلاد الإسلام، بل إنهم تسابقوا إليه حتى في حالة فرض الكفاية وجهاد الطلب، قال أبو طلحة :« ماسمع الله عذر أحد، وخرج إلى الشام فجاهد حتى مات »وقال أبو أيوب ما أجدني أبداً إلا ثقيلاً أو خفيفاً » وروى أن بعض الناس رأى في غزوات الشام رجلاً سقط ، حاجباه على عينيه من الكبر، فقال له : ياعم ، إن الله قد عذرك، فقال يا ابن أخي : إنا قد أمرنا بالنفر خفافاً وثقالاً » وأسند الطبري عمن رأى المقداد بن الأسود بحمص وهو على تابوت صَرّاف، وقد فضل على التابوت من سمنه، وهو يتجهز للغزو، فقال له : لقد عذرك الله فقال :« أتت علينا سورة البعوث ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ . . »(١١٠) وخرج سعيد بن المسيب -أحد الفقهاء السبعة- إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه،

---

(١٠٨) سورة التوبة ٣٩ ، ٤١ .

(١٠٩) أحكام القرآن لابن العربي ، ط دار المعرفة ٢/ ٩٥٤ - ٩٥٥ ، وراجع :تفسير الماوردي ك ٢/ ١٤٠ .

(١١٠) تفسير ابن عطية ٦/ ٥٠٢ - ٥٠٣ .

فقيل له : إنك عليل، فقال :« استنفر الله الخفيف والثقيل فإن لم يمكني الحرب كثرت السواد، وحفظت المتاع »(١١١) .

ومنها قوله تعالى :﴿ وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر.. ﴾(١١٢) .

يقول ابن العربي : « فإن الولاية معهم –أي مع الأسراء والمستضعفين– قائمة، والنصرة لهم واجبة بالبدن بألا تبقى منا عين تطرف حتى تخرج إلى استنفاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك، أو نبذل جميع أموالنا في استخراجهم حتى لا يبقى لأحد درهم كذلك قال مالك، وجميع العلماء :« فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما حل بالخلق، وفي تركهم إخوانهم في أسر العدو، وبأيديهم خزائن الأموال وفضول الأمول، والعُدَّة، والعدد، والقوة، والجلد »(١١٣) .

وقوله تعالى :﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلوكم كافة.. ﴾(١١٤) قال القاضي ابن العربي :« كافة يعني محيطين بهم من كل جانب وحالة »(١١٥) وقوله تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »(١١٦) ، وقد فسره ابن عمر بالشرك فقال : « إنما كان محمد يقاتل المشركين وكان الدخول في دينهم فتنة »(١١٧) ، وكذلك فسره ابن عباس والسدي، وقد ذكر الطبري ما يدل على أن هذه الآية تذكير بما قام به المشركون من افتتان الصحابة بكل الوسائل حينما كانوا في مكة مستضعفين، فأمرهم الله تعالى بقتالهم حتى لا تحدث فتنة أخرى(١١٨) ، من هنا فحينما يستولي الأعداء على الديار الإسلامية يكون أهلها مهددين في دينهم وأعراضهم فيجب القتال لحماية الدين والنفس والعرض والمال(١١٩) .

---

(١١١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨/ ١٥٠ .

(١١٢) سورة الأنفال الآية ، وراجع تفسير ابن عطية ٦/ ٣٩٠ .

(١١٣) أحكام القرآن : ٢/ ٨٨٧ .

(١١٤) سورة التوبة : الآية ٣٦ .

(١١٥) الجامع لأحكام القرآن : ٨ ١٥٠ .

(١١٦) سورة الأنفال : الآية ٤٠ .

(١١٧) أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٨٥٤) .

(١١٨) يراجع : تفسير الطبري في تفسير هذه الآية ، وتفسير ابن عطية (٦/ ٣٠١) وتفسير القرطبي (٢/ ٣) .

(١١٩) يراجع : د. عبد الله عزام في كتيبه القيم : الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض الأعيان ، ص ١٥ .

وأما السنة فالأحاديث في ذلك كثيرة منها الحديث المتفق عليه الذي رواه الشيخان، وأصحاب السنن، وأحمد وغيرهم أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «لاهجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»(١٢٠) ، وقد ترجم البخاري باب وجوب النفير، فأورد فيه الآيتين (٣٨ ، ٤١) من سورة التوبة، وهذا الحديث ، وذكر الحافظ في شرحه أن الجهاد يصبح فرض عين إذا طرق ديار المسلمين طارق من الأعداء، ثم رد على من قال بأن آية: ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً »منسوخة بآية ﴿ وماكان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ فقال: « والتحقيق أن لا نسخ بل الرجوع في الآيتين إلى تعيين الإمام، وإلى الحاجة إلى ذلك »(١٢١) ومعنى ذلك أن النفير العام إنما يجب، وبالتالي يصبح فرض عين على القادرين إذا قام إمام المسلمين بالاستنفار –كما في غزوة العسرة– أو هاجم الأعداء ديار المسلمين.

وأما الإجماع فقد أجمع علماء الأمة على وجوب الجهاد على كل من قدر عليه من المسلمين، إذا غلب أعداء الإسلام على ديار المسلمين –وقد أوردنا نصوصهم في ذلك آنفاً–

وأما العقل فإنه يقتضي حماية الأنفس والأعراض والأموال، والدين والعقل –مما سماه الفقهاء والأصوليون بالضروريات الخمس، وعند غلبة الأعداء تراق الدماء، وتهان النفوس، وتؤخذ الأموال، إلى غير ذلك من المفاسد والمضار، ولا توجد في الدنيا دولة تقف مكتوفة الأيدي، مادامت قادرة أمام اعتداء أعدائها على أراضيها، وعلى كرامتها ، بل نرى بعض الدول الكبري تقوم بغزو دولة أخرى حينما تعتدي على بعض أفرادها، والإسلام دين الفطرة، وقد وضع ميزان العدالة، وقرر بأن من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» ولكنه ليس مثل الجاهليين بأن يأخذ بدل الواحد اثنين بل يفرض مبدأ العدالة

---

(١٢٠) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ،الجديث (٢٨٢٥) مع الفتح (٦/٣٧) ومسلم ، كتاب الإمارة ، الحديث (١٣٥٣) .

(١٢١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٦/٣٧) .

في أدق الظروف وأخطرها ، وهي حالة الحرب، فقال تعالى يفرض: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾(١٢٢) وقال: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾(١٢٣) .

ثم إن الإسلام أوجب دفع الصائل -وإن كان مسلماً- على العرض، أو المال، أو النفس حتى ولو أدى إلى قتله لقوله -صلى الله عليه وسلم- : «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد »(١٢٤) فكيف إذا هاجم العدو الكافر على ديار المسلمين، بل ذكر علماء الأصول ضمن المصالح الكلية المعتبرة بالاتفاق : أن الكفار المهاجمين إذا تترسوا بأسرى المسلمين -أي جعلوهم أمامهم- ولم يمكن قتالهم إلا بقتال هؤلاء المسلمين يجب قتالهم حتى ولو أدى إلى قتل هؤلاء(١٢٥) . يقول ابن تيمية : «بل لو كان فيهم -أي الكفار- قوم صالحون من خيار الناس، ولم يمكن قتالهم إلا بقتل هؤلاء لقتلوا أيضاً، فإن الأئمة متفقون على أن الكفار لو تترسوا بمسلمين، وخيف على المسلمين إذا لم يقاتلوا، فإنه يجوز أن نرميهم، ونقصد الكفار . . »(١٢٦) ، وذلك لأننا إذا لم نقاتل هؤلاء وأولاء فإنهم يغلبون علينا، فيقتلوننا، أو يذلوننا كما أذلوهم، ويفتنون ديننا، فحماية المصلحة العامة للأمة أولى من حماية مصالح بعضهم.

هذا ولو ألقينا نظرة على واقعنا الإسلامي وتاريخنا الطويل لوجدنا أن أسباب كل ما أصابنا من هزائم، ومن احتلال أراضينا . . تكمن في عدم نهوض الأمة بواجب الجهاد وصد المعتدين والمغتصبين، وعدم قيامنا بتوفير شروطه ومستلزماته من الإعداد الروحي والمادي، والصف الواحد، وهذا ما يشهد عليه

---

(١٢٢)سورة المائدة الآية ٨ .

(١٢٣) سورة المائة الآية ٢ .

(١٤) الحديث صحيح سبق تخريجه .

(١٢٥) انظر : المنخول تحقيق د . هيتو ، ص ٣٦٤ والغاية القصوى للبيضاوي (١/ ١٨٤) .

(١٢٦) مجموع الفتاوي : (٢٨/ ٥٣٧) .

التاريخ بدءاً من احتلال الصليبيين للقدس، وللأندلس، وانتهاء باحتلال الاستعمار البريطاني، أو الإيطالي، أو الهولندي، أو الأسباني، أو الروسي لأجزاء كبيرة من أراضينا الإسلامية وعلى رأسها فلسطين، والقدس الشريف أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.

وقد أشار النبي الكريم –صلى الله عليه وسلم– إلى ذلك بوضوح فقال: توشك الأمم أن تُداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: أومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعَنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يارسول الله وما الوهن؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت»(١٢٧) .

كما أن أسباب انتصار المسلمين، ورد الغزاة والمعتدين كانت كامنة في حب الجهاد، والتضحية بالمال والأنفس في سبيل الله ، قال تعالى:﴿ يأأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب، وبشر المؤمنين﴾(١٢٨) .

والتاريخ شاهد على ذلك ، فما استطاع القائد صلاح الدين أن يرد القدس إلا بالجهاد وما استطاعت الدول الإسلامية أن تتخلص من الاستعمار والاحتلال الأجنبي إلا بالجهاد ، كما في الجزائر، وتونس ، وحرب العاشر من رمضان، وأفغانستان والشيشان، وكذلك الانتفاضة المباركة للشعب الفلسطيني حيث يجاهدون في الداخل تحت شعار الله أكبر.

---

(١٢٧) رواه أحمد في المسند (٥/٢٧٨) وأبو داود في سننه ، كتاب الملاحم الحديث (٤٢٧٦) ، وعون المعبود (١١/٤٠٤) ، وقد سكت عنه أبو داود مما يؤذن بتحسينه .

(١٢٨) سورة الصف : الاية (١٠ – ١٣) .

جهاد الطلب :

أما النوع الثاني –أي جهاد طلب الكفار فقد ثار فيه خلاف بين الفقهاء على أربعة آراء:

الرأي الأول: إنه فرض كفاية –وفي كل سنة مرة أو مرتين– وهذا رأي فقهاء المذاهب المعتبرة، وجماهير العلماء سلفاً وخلفاً(١٢٩) .

الرأي الثاني: إنه فرض عين على القادر (غير المعذور) وهذا رأي سعيد بن المسيب(١٣٠) .

الرأي الثالث: إنه تطوع ومندوب، وهذا رأي عبدالله بن الحسن(١٣١) .

الرأي الرابع : إنه فرض كفاية مع الخوف، ونافلة مع الأمن، وهذا منقول عن ابن عبد البر(١٣٢) .

والمراد بفرض الكفاية أنه إذا قام به بعض الأمة سقط الإثم عن الباقين، وهذا يعني استعداد الأمة للجهاد دائماً من خلال وجود قوة متدربة ضاربة قوية مهيأة للحرب ونشر الإسلام ، والدفاع عن أراضيه في كل وقت وأوان، يقول ابن قدامة: «يجب في كل عام مرة إلا من عذر مثل أن يكون بالمسلمين ضعف في عدد، أو عدة أو ينتظر المدد يستعين به ، أو يكون الطريق إليهم فيها مانع..، أو ينتظر من عدوه حسن الرزي في الإسلام ، فيطمع في إسلامهم إن أخر قتالهم، ونحو ذلك مما يرى المصلحة معه في ترك القتال»(١٣٣) .

---

(١٢٩) بدايع الصنايع (٤٢٩٩) ورد المحتار على الدر المختار ، ط . دار إحياء التراث العربي (٣/٢١٨) . وبداية المجتهد (١/ ٣٨٠) . والشرح الكبير مع الدسوقي (٢/ ١٧٣) . والمهذب للشيرازي ، ط . الحلي (٢/ ٢٢٧) والغاية القصوى (٢/ ٩٤٣) . وروضة الطالبين (١٠/ ٢٠٨) . والمغني لابن قدامة (٨/ ٣٤٥) . والمحلي لابن حزم ط . الجمهورية (٧/ ٤٦١) .

(١٣٠) رحمة الأمة في اختلاف الأئمة ، ص ٢٩٢ .

(١٣١) مراتب الإجماع (١١٩) وبداية المجتهد (١/ ٣٨٠) .

(١٣٢) بداية المجتهد (١/ ٣٨٠) .

(١٣٣) المغني (٨/٣٤٨) .

وأما فرض العين فهو يعني وجوب الجهاد على كل فرد متوافر فيه شروطه، بحيث إذا لم يقم به فهو آثم يستحق العقاب، فيكون مثل الصلاة والحج، وأما التطوع فهو يعني عدم ترتب الإثم على تركه مطلقاً(١٣٤) .

واعتبار الجهاد في هذه الحالة من فروض الكفايات لا يعني التقليل من شأنه بل يعني جعله مسئولية جماعية تشترك الأمة جميعها في الإثم إذا لم يؤد على الوجه المطلوب، على عكس فرض العين الذي إذا لم يقم به شخص فإنه لا يؤثم إلا هو ، وهذا يعنى أن تكون هناك داخل الأمة حركة ذاتية مؤثرة تدفعها نحو الجهاد والتضحية، وأن هذا الحق من حقوق الأمة وبالتالي يشترك في تحمل مسؤليتها الجميع، ولهم الحق في المحاسبة والمساءلة، لأن الجميع يشتركون في الإثم إذا لم يؤد.

وقد عبر الفقهاء عن وجهة نظرهم حول جهاد الطلب فقال العلامة الكاساني :« فإن لم يكن النفير عاماً فهو فرض كفاية كل سنة ، معناه أن يفترض على جميع من هو من أهل الجهاد، لكن إذا قام به البعض سقط عن الباقين»(١٣٥) .

ويقول ابن رشد « فأما حكم هذه الوظيفة -أي الجهاد- فأجمع العلماء على أنها فرض على الكفاية، لا فرض عين إلا عبدالله بن الحسن ، فإنه قال : « إنها تطوع »، وقال الدردير :« الجهاد في أهم جهة كل سنة » فرض كفاية ولو مع وال جائر . . »(١٣٦) ويقول البيضاوي :« وهو فرض ، لقوله تعالى :﴿ كتب عليكم القتال. . . الآية (١٣٧) . على الكفاية . . . كل سنة مرة في أهم الجهات اقتفاء لأثره . . »(١٣٨) ويقول ابن قدامة :« والجهاد فرض على الكفاية

---

(١٣٤) انظر في تفصيل ذلك : كتب أصول الفقه ، منها المستصفى (١/ ٦٥ ..) والمنهاج للبيضاوي مع شرحيه للأسنوي والبدخشي ط . محمد صبيح (١/ ٣٠٠٠٠) .

(١٣٥) بدائع الصنائع (٩/ ٤٢٩٩) وزيادة « كل سنة » من حاشية ابن عابدين (٣/ ٢١٨) حيث قال : « فيجب على الإمام أن يبعث سرية إلى دار الحرب كل سنة مرة ، أو مرتين ، وعلى الرعية إعانته ، فإن لم يبعث كان كل الإثم عليه ، وهذا إذا غلب على ظنه أنه يكافئهم ، وإلا فلا .. » ولكن الأمة أيضاً تشترك في الإثم إذا لم تقم بهذا الواجب .

(١٣٦) بداية المجتهد (١/ ٣٨٠) والشرح الكبير مع الدسوقي (٢/ ١٧٣ - ١٧٤) .

(١٣٧) سورة البقرة : الآية ٢١٦ .

(١٣٨) الغاية القصوى (٢/ ٩٤٣) وروضة الطالبين (١٠/ ١٢٨) والمهذب (٢/ ٢٢٧) .

إذا قام به قوم سقط عن الباقين.. وإن لم يقم به من يكفي أثم الناس كلهم، فالخطاب في ابتدائه يتناول الجميع كفرض الأعيان ، ثم يختلفان في أن فرض الكفاية يسقط بفعل بعض الناس له، وفرض الأعيان لا يسقط عن أحد بفعل غيره »(١٣٩) ، وقال ابن حزم :« والجهاد فرض على المسلمين، فإذا قام به من يدفع العدو ويغزوهم في عقر دارهم ويحمي ثغور المسلمين سقط فرضه عن الباقين ، وإلا فلا »(١٤٠) .

هذا وقد فرق بعض الفقهاء بين كَيْفيّة الجهاد في عصر الرسول –صلى الله عليه وسلم– وبين ما بعده، حيث قالوا كان فرض عين على المهاجرين، و الأنصار، وفرض كفاية على غيرهم(١٤١) .

الأدلة :

استدل القائل بأن الجهاد ابتداء فرض عين بظواهر النصوص مثل قوله تعالى : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾(١٤٢) فالآية تدل بوضوح على أن الجهاد فرض على الجميع، ويؤكد ذلك قوله تعالى :﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ﴾(١٤٣) ولذلك كان ابن سيرين يقول :« كان أبو أيوب الأنصاري يقول : « قال الله تعالى :﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ فلا أحد من الناس إلا خفيف أو ثقيل »(١٤٤) .

واستدلوا أيضاً بقوله–صلى الله عليه وسلم– « من مات ولم يغزُ ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق »(٧) .

---

(١٣٩) المغني لابن قدامة (٨/ ٣٤٥) .
(١٤٠) المحلي (٧/ ٤٦١) .
(١٤١) المصادر السابقة .
(١٤٢) سورة البقرة : الآية ٢١٦ .
(١٤٣) سورة التوبة : الآية .
(١٤٤) المحلي حزم (٧/ ٤٦١) .
(١٤٥) رواه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة (٣/ ١٥١٧) .

ولكن هذه الآدلة لو تعمقنا فيها لوجدناها تدل على الفرْض ، ولكنها لا تدل على كونه فرض عين في جميع الأحوال، فقوله تعالى: ﴿كتب عليكم القتال﴾ يدل على الفرضية المطلقة المتحققة بفرض الكفاية جمعاً بين الأدلة، ولا شك أن الجمع بينها أولى من الغاء أحدها كما صرح بذلك الأصوليون، وأما قوله تعالى: ﴿انفروا .. ﴾ فيدل على أن الجهاد إنما يكون فرض عين إذا وقع النفير العام من الإمام، أو لدفع خطر العدو الغاصب، أو المحدق المنتظر للانقضاض علينا، كما فسر ذلك قول النبي -صلى الله عليه وسلم- :« وإذا استنفرتم فانفروا . . »(١٤٦) . وأما الحديث الشريف فلا يدل على دعواهم، فالحديث نفسه يدل على الاكتفاء بالنية فقط ، والاستعداد النفسي للتضحية، فلو كان الجهاد فرض عين لما اكتفى فيه بذلك، شأنه في ذلك شأن أي فرض عين، كالصلاة، فهذا الحديث توجيه نبوي شريف، وإرشاد منه للأمة بأن تستعد أفرادها دائماً للجهاد والتضحية في سبيل الله، والذب عن دينهم وديارهم ، فهذه الروح الجهادية هي الموقظة والمحركة للشعوب، ولدفع عجلة النهوض والتقدم.

وأما رأي عبدالله بن الحسن القائل بكون الجهاد تطوعاً لا يرقى إلى درجة الفرضية فلا أجد له دليلاً معتبراً في الكتاب، والسنة ، بل هو مخالف في ظاهره لقوله تعالى :﴿ كتب عليكم القتال﴾ أي فرض كما في قوله تعالى :﴿ كتب عليكم الصيام﴾.

وأما جماهير العلماء فقد استدلوا بالكتاب والسنة:

أما الكتاب فالآيات التي ذكرناها آنفاً تدل على الفرضية، كما يدل على كون هذا الفرض على الكفاية قوله تعالى: ﴿لايستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى﴾(١٤٧) .

---

(١٤٦) سبق تخريجه.
(١٤٧) سورة النساء: الآية ٩٥.

قال ابن قدامة : «وهذا يدل على أن القاعدين غير آثمين مع جهاد غيرهم»(١٤٨)، وقال العلامة الشيرازي :« والجهاد فرض ، والدليل عليه قوله عزوجل : ﴿كتب عليكم القتال . . . ﴾ وقوله تعالى : ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم . . ﴾ وهو فرض على الكفاية . . لقوله عزوجل ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين . . ﴾ ولو كان فرضاً على الجميع لما فاضل بين من فعل، وبين من ترك، ولأنه وعد الجميع بالحسنى فدل على أنه ليس بفرض على الجميع»(١٤٩) .

وكذلك يدل على عدم فرضية جهاد الطلب والبدء على الجميع قوله تعالى : ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين . . ﴾(١٥٠) فالآية صريحة في عدم وجوب أن ينفر الجميع للجهاد إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك.

وأما السنة فالأحاديث في الأمر بالجهاد ، والنهي عن تركه، وبيان عقاب من تركه أكثر من تُحصى وسيرة النبي الكريم -صلى الله عليه وسلم- شاهدة على ذلك، قال ابن رشد : «ولم يخرج قط رسول الله -صلى الله عليه وسلم- للغزو إلا وترك بعض الناس»(١٥١) ، وقال ابن قدامة :« ولأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يبعث السرايا ، ويقيم هو وسائر أصحابه»(١٥٢) غير أنه إذا استنفر كما في غزوة تبوك كانت إجابته واجبة، ولذلك هجر النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه كعب بن مالك وصاحبيه ﴿ الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾(١٥٣) .

وأما كونه في كل سنة مرة أو مرتين، فلأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يترك الجهاد في كل سنة مرة أو أكثر، فمنذ أن تحققت دار قوية للإسلام وأذن الله تعالى بالجهاد بعث سرايا لهذا الغرض ، وبدأ هو أيضاً به، فكان أول

---

(١٤٨) المغني : ٨/ ٣٤٥ .
(١٤٩) المهذب : ٢/ ٢٢٧ .
(١٥٠) سورة التوبة : الآية ١٢٢ .
(١٥١) بداية المجتهد : ١/ ٣٨١ .
(١٥٢) المغني : ٨/ ٣٤٦ ، ويراجع : تلخيص الحبير : ٤/ ٨٩ .
(١٥٣) سورة التوبة : الآية ١١٨ وراجع قصة كعب في صحيح البخاري - مع الفتح (٨/ ٣٤١..) .

غزوة اشترك فيها الرسول -صلى الله عليه وسلم- غزوة (ودان) حيث خرج من المدينة في شهر صفر على رأس اثنى عشر شهراً من مقدمه المدينة المنورة، ثم غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية من الهجرة، ثم أحد في الثالثة، وذات الرقاع في الرابعة، وغزوة الخندق في الخامسة، والحديبية في السادسة، وخيبر في السابعة، وفتح مكة في الثامنة، وتبوك في التاسعة(١٥٤) .

وهذا الرأي هو الذي يظهر رجحانه وصوابه - مع ملاحظة شمولية الجهاد ومراتبه - ، وذلك لأن الجهاد في نظر الإسلام وسيلة نشر الدعوة الحقة بعد ما تسد بقية طرقها، ولا تجدي نفعاً، ويقف الطواغيت في سبيل نشرها، ولا يقبل أهلها بالإسلام، ولا بنشر الدعوة بين صفوفهم، والاعتراف بدولة الإسلام، كما أن هذا الرأي في الواقع يتفق مع نصوص الشريعة من الكتاب والسنة، ويؤدي إلى الجمع بينها دون تعارض، أو الغاء فالقول بأن الجهاد فَرض عين على الجميع لا يتفق مع ما كان عليه المسلمون في عصر الرسول (ﷺ) وعصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم من أن بعضهم لم يباشروا الجهاد ، بل إن قوله تعالى ﴿ وما كان المؤمنين لينفروا كافة .. ﴾ يدل بوضوح على أن الجهاد ليس فرض عين من حيث المبدأ إلا إذا وجد مبرر آخر مثل غزو الكفار لبلد إسلامي حيث يصبح فرض عين على أهله ، أو دعا إلى ذلك خليفة المسلمين ، وأما القول بأن الجهاد تطوع وليس بفرض فقول شاذ مرفوض لا يتفق مع النصوص القاطعة بفرضية الجهاد مثل قوله تعالى﴿ كتب عليكم القتال .. ﴾، والأحاديث الكثيرة التي ذكرت الجهاد مع الفرائض، أو التي جعلته ذروة سنام الإسلام ، منها : قوله -صلى الله عليه وسلم- :« من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق »(١٥٥) ، وما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: « جاء رجل إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: « دلني على عمل يعدل الجهاد، قال: لا أجده.. »(١٥٦) ، وقال

---

(١٥٤) يراجع لتفصيل ذلك : صحيح البخاري مع شرحه : فتح الباري : ٧/ ٢٧٩ - ٢٨٢ ، ٨/ ١٥٣ - ١٥٤) وطبقات ابن سعد (٢/ ٥ - ١٨٩) وتلخيص الحبير (٤/ ٨٩ - ٩١) وسنن الترمذي مع تحفة الأحوذي ٥/ ٣٢٢ ، وهناك خلاف في تواريخ بعض هذه الغزوات ، فليراجع : البداية والنهاية لابن كثير الجزء الثالث ، والرابع .

(١٥٥) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإمارة ٣/ ١٥١٧ الحديث رقم ١٩١٠ .

(١٥٦) صحيح البخاري - مع الفتح - كتاب الجهاد ٦/ ٤ . ومسلم ، كتاب الإمارة (٣/ ١٤٩٨) .

-صلى الله عليه وسلم-: «وجاهدوا مع كل أمير»(١٥٧) ، وقوله -صلى الله عليه وسلم-: «والجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال لا يبطله جور جائر، ولا عدل عادل..»(١٥٨) وقال أيضاً: «لئن تركتم الجهاد وأخذتم بأذناب البقر، وتبايعتم بالعينة ليلزمنكم الله مزلة في رقابكم لا تنفك عنكم حتى تتوبوا إلى الله، وترجعوا على ماكنتم عليه»(١٥٩) .

كل هذه الآيات والأحاديث تدل دلالة واضحة على أن الجهاد من حيث المبدأ فرض كفاية للقضاء على سلطان الطواغيت وتمهيد الطريق لنشر الدعوة وإيصال الرسالة إلى العالم أجمع حسب الإمكان ، ثم إنه قد يصبح فرض عين إذا احتل جزء من أراض الإسلام حيث يجب على أهل المنطقة أن يدفعوا هذا الضرر، ويطهروا أرض الله من أرجاس الكفر والشرك، وإذا لم يقدروا على ذلك فيجب على من والاهم الأقرب فالأقرب. وهذا لا يعني الانتظار لغاية ما يهلك ويهزم أهل المنطقة، وإنما يجب على المسلمين أن يهبوا لنجدة إخوانهم بقدر ما يستطيعون به دفع المعتدين في الوقت المناسب.

وكذلك يصبح الجهاد فرض عين إذا دعا إمام المسلمين إلى النفير العام كما فعله الرسول -صلى الله عليه وسلم- لغزوة تبوك، ولقوله تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ - كما سبق، وكذلك يصبح الجهاد فرض عين إذا عين الإمام شخصاً لمهمة قتالية، أو مجموعة، فيصبح الجهاد فرض عين عليهم، لقوله تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيلَ لكم انفروا في سبيلِ اللهِ اثاقلتم إلى الأرضِ أرضيتُم بالحياةِ الدنيا من الآخرةِ ، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرةِ إلا قليلٌ﴾(١٦٠)وللحديث الصحيح: «إذا استنفرتم فانفروا»، وكذلك يصبح

---

(١٥٧) رواه ابن ماجه بسند ضعيف (١/ ٤٨٨) الحديث رقم (١٥٢٥) .

(١٥٨) رواه أبو داود في سننه كتاب الجهاد (٧/ ٢٠٥ - ٢٠٦) والحديث سكت عنه أبو داود ، والمنذري .

(١٥٩) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٤٢) .

(١٦٠) سورة التوبة : الآية ٣٨ ، ويراجع المصادر الفقهية السابقة .

فرض عين إذا التقى الزحفان-المسلمون، والكافرون - وتقابل الصفان، فحينئذ يحرم على من حضر الانصراف حتى ولو لم يبدأ القتال لقوله تعالى: ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾(١٦١).

استئذان الوالدين والزوج :

ومن الجدير بالتنبيه عليه حينما يكون الجهاد فرض عين، لا يحتاج إلى إذن الوالدين بالنسبة للأولاد، ولا إذن الأزواج بالنسبة للزوجات، ولا إذن الدائنين بالنسبة للمدينين، ولا إذن السيد بالنسبة للعبد، وأما إذا كان فرض كفاية فيجب استئذان هؤلاء، فقد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال: «جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فاستأذنه في الجهاد، فقال: «أحيٌّ والداك؟ قال: نعم. قال ففيهما فجاهد»(١٦٢) قال الحافظ ابن حجر: «قال جمهور العلماء: يحرم الجهاد إذا منع الأبوان، أو أحدهما بشرط أن يكونا مسلمين، لأن برهما فرض عين عليه، والجهاد فرض كفاية، فإذا تعين الجهاد فلا إذن، ويشهد له ما أخرجه ابن حبان من طريق أخرى عن عبدالله بن عمر، قال: «جاء رجل إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فسأله عن أفضل الأعمال، قال: الصلاة. قال ثم مه؟ قال: الجهاد. قال: فإن لي والدين فقال: آمرك بوالديك خيراً. قال والذي بعثك بالحق نبياً لأجاهدن، ولأتركنهما قال: فأنت أعلم» وهو محمول على جهاد فرض العين توفيقاً بين الحديثين(١٦٣).

ويقول ابن رشد: «وعامة الفقهاء متفقون على أن من شرط هذه الفريضة إذن الأبوين فيها إلا أن تكون عليه فرض عين مثل أن لا يكون هنالك من يقوم

---

(١٦١) سورة الأنفال: الآية ٤٥، ٤٦.
(١٦٢) صحيح البخاري - مع الفتح - (٦/١٤١).
(١٦٣) فتح الباري (٦/١٤١) ويراجع: المصادر الفقهية السابقة.

بالفرض إلا بقيام الجميع به »(١٦٤) وهذا إذا كان الأبوان مسلمين، وإلا فلا يشترط الاستئذان من الكافر على الراجح الذي عليه جمهور الفقهاء(١٦٥) .

إذن الدائنين :

لم ينس الإسلام -وهو يدعو إلى الجهاد -حقوق الناس، إذْ الإسلام دين كامل له نظرته الشمولية، فلا يجوز أن يأخذ الإنسان ببعض الأحكام أو يتشدد فيها، ويترك بعضها الآخر ، أو يتساهل فيها، ومن هنا فقد اتفق الفقهاء على أن المدين لا يخرج إلى الجهاد (الذي هو فرض كفاية) إلا بعد أداء دينه، أو الاستئذان من دائنه مادام الدين حالاً (أي حل وقت أدائه) أما إذا كان الدين مؤجلاً فقد اختلفوا فيه(١٦٦) .

والراجح الذي يدعمه الدليل هو أنه لا يجوز للمدين أن يخرج للجهاد - الذي هو فرض كفاية - إلا بعد أخذ الإذن من دائنه، أو يترك وفاءً ويوصي به، أو يقيم كفيلاً به، أو يوثقه برهن يفي بدينه(١٦٧)، وذلك لقول النبي -صلى الله عليه وسلم- : « يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين »(١٦٨) كما أن والد جابر بن عبدالله خرج إلى أحد وعليه دين كثير فاستشهد، وقضاه ابنه جابر بعلم النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يذمه ولم ينكر عليه بل مدحه، وقال « فمازالت الملائكة تظله بأجنحتها »(١٦٩) .

شروط الجهاد :

ثم إن الجهاد إنما يصبح فرض عين أو كفاية بشروط ذكرها الفقهاء

---

(١٦٤) بداية المجتهد (١/ ٣٨) .

(١٦٥) يراجع : فتح القدير (٥/ ١٩٤) وحاشية ابن عابدين (٣/ ٢٢٠) والدسوقي (٢/ ١٧٥) والمهذب (٢/ ٢٢٩) ونهاية المحتاج (٨/ ٥٧) والمغني لابن قدامة (٨/ ٣٥٩) .

(١٦٦) يراجع في تفصيل ذلك : حاشية ابن عابدين (٣/ ٢٢١) والشرح الكبير مع الدسوقي (٢/ ١٧٥) والروضة للنووي (١٠/ ٢١٠ - ٢١١) والمغني لابن قدامة (٨/ ٣٦٠) .

(١٦٧) المغني (٨/ ٣٦٠) والروضة (١٠/ ٢١٠) .

(١٦٨) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، الحديث (١٨٨٦) (٣/ ١٥٠٢) وأحمد (٢/ ٢٢٠) .

(١٦٩) الحديث رواه البخاري في صحيحه - مع الفتح - كتاب الجنائز ٣/ ١٦٣ ومسلم ، فضائل الصحابة الحديث ٤٧١ (٤/ ١٩١٧) ، وأما الاستشهاد بهذه الواقعة فراجعه في المغني لابن قدامة (٨/ ٣٦٠ - ٣٦١) .

نسردها هنا بإيجاز ، قال العلامة الكاساني :« وأما بيان من يفترض عليه فنقول : إنه لا يفترض إلا على القادر عليه، فمن لا قدرة له لا جهاد عليه، لأن الجهاد بذل الجهد، وهو الوسع والطاقة بالقتال، أو المبالغة في عمل القتال، ومن لا وسع له كيف يبذل الوسع ، فلا يفرض على الأعمى والأعرج ، والزمن والمقعد، والشيخ الهرم، والمريض، والضعيف ، والذي لا يجد ما ينفق ، قال تعالى : ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على المريض حرج﴾(١٧٠) ، وقال تعالى : ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله . . ﴾(١٧١) فقد عذر الله تعالى هؤلاء بالتخلف عن الجهاد، ورفع الحرج عنهم، ولا جهاد على الصبي، والمرأة، لأن بنيتهما لا تحتمل الحرب عادة . . »(١٧٣) .

ويمكن تلخيص الشروط التي ذكرها الفقهاء في سبعة هي : الإسلام، والبلوغ، والعقل، والحرية، والذكورة، والسلامة من الضرر ووجود النفقة(١٧٣) .

الخلاصة :

إن الله تعالى أراد لهذه الأمة أن يخرجها إخراجاً خاصاً بحيث تكون قادرة على النمو الذاتي، والقدرة الدائمة المتحركة ، وعلى مواجهة التحديات والمشاكل والقضاء عليها، وتكون صاحبة رسالة عالمية بتحمل مسئولية حملها إلى جميع الناس مهما تكلفت المشاق، وترتبت عليها التضحيات الجسام، ولذلك أعدت إعداداً جيداً، وجعلت أمة مجاهدة يكون الجهاد فيها ماضياً إلى يوم القيامة، ويكون هذا الجهاد شاملاً شمول الإسلام وشاملاً للأنفس وإعدادها، والأخلاق وتهذيبها وتربيتها، شاملاً للقلب، واللسان والجوارح، وبالأموال، والأنفس،والأولاد، والزهيد والنفيس، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية :« ومن عجز عن الجهاد ببدنه، وقدر على الجهاد بماله وجب

---

(١٧٠) سورة الفتح : الآية ١٧ .

(١٧١) سورة التوبة : الآية ٩١ .

(١٧٢) بدائع الصنائع (٩/ ٤٣٠١) .

(١٧٣) يراجع في تفصيل ذلك المصادر الفقهية السابقة .

عليه بماله، وهو نص عن أحمد في رواية أبي الحكم، وهو الذي قطع به القاضي في أحكام القرآن في سورة براءة عند قوله:﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾، فيجب على الموسرين النفقة في سبيل الله، وعلى هذا يجب على النساء الجهاد في أموالهن إن كان فيها فضل، وكذلك في أموال الصغار إذا احتيج إليها ، .. فأما إذا هجم العدو فلا يبقى للخلاف وجه، فإن دفع ضررهم عن الدين، والنفس، والحرمة، واجب إجماعاً »، بل ذكر أن الجهاد يقدم على الوفاء بالدين إذا كان الجهاد متعيناً لدفع الضرر، كما إذا حضره العدو، أو حضر هو الصف، وكذلك يقدم المال إذا ضاق للجهاد حتى وإن كان هناك جياع مادام على ترك الجهاد يترتب ضرر، فقال: « لو ضاق المال عن إطعام جياع، والجهاد الذي يتضرر بتركه، قدمنا الجهاد وإن مات الجياع كما في مسألة التترس ، وأولى ، فإن هناك نقتلهم بفعلنا ، وهنا يموتون بفعل الله » كما ذكر أن الجهاد يجوز تقديمه على الحج الواجب حتى ولو لم يبق معه مال للحج، وأن الرباط في الجهاد أفضل من المقام بمكة إجماعاً(١٧٤) .

وقد ذكر فقهاؤنا الأجلاء أن تقدير أمور الجهاد لابد أن تناط برأي أهل الفقه والخبرة، فقال ابن تيمية :« والواجب أن يعتبر في أمور الجهاد برأي أهل الدين الصحيح الذين لهم خبرة بما عليه أهل الدنيا دون أهل الدنيا الذين يغلب عليهم النظر في ظاهر الدين، فلا يؤخذ برأيهم ، ولا برأي أهل الدين الذين لا خبرة لهم في الدنيا »(١٧٥) ، وقد فصل الماوردي ، والقاضي أبو يعلي تفاصيل رائعة حول هذه المسألة(١٧٦) .

ونختم هذه الخلاصة بما ذكره ابن القيم حول هدي الرسول –صلى الله عليه وسلم– في الجهاد، فقال : « فلما استقر رسول الله بالمدينة، وأيده الله بنصره، بعباده المؤمنين الأنصار، وألف بين قلوبهم بعد العداوة.. فمنعته أنصار الله،

---

(١٧٤) الاختيارات الفقهية ص ٣٠٩ – ٣١١ .
(٧٥) المصدر السابق ص ٣١١ .
(١٧٦) انظر : الأحكام السلطانية للماوردي ، ط . التوفيقية بالقاهرة . ص ٣٧ – ٥٨ ، والأحكام السلطانية للقاضي ط . مصطفى الحلبي ص ٣٩ – ٥١ .

وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلوا نفوسهم دونه، وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء، والأزواج وكان أولى بهم من أنفسهم، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة، وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة وصاحوا بهم من كل جانب، والله سبحانه يأمرهم بالصبر، والعفو، والصفح حتى قويت الشوكة، واشتد الجناح فأذن لهم حينئذ في القتال، ولم يفرضه عليهم، فقال تعالى: ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾(١٧٧). وقد روى الحاكم عن ابن عباس أن هذه الآية هي أول آية نزلت في القتال(١٧٨) ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم، فقال: ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم.. ﴾(١٧٩) ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة، .. إما فرض عين على أحد القولين، أو فرض كفاية على المشهور».

والتحقيق أن جنس الجهاد فرض عين، إما بالقلب -أي نية الغزو، وإرادة إزالة الكفر والمنكر- وإما باللسان، وإما بالمال، وإما باليد، فعلى كل مسلم، أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع، أما الجهاد بالنفس ففرض كفاية على التفصيل السابق.

الجهاد بالمال:

وأما الجهاد بالمال ففي وجوبه قولان، والصحيح وجوبه، لأن الأمر بالجهاد به، وبالنفس في القرآن سواء كما قال تعالى: ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله... ﴾(١٨٠) وعلق النجاة من النار به، ومغفرة الذنب، ودخول الجنة، فقال سبحانه: ﴿ يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك

---

(١٧٧) سورة الحج: الآية ٣٩.

(١٧٨) وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. المستدرك ٢/ ٦٦ ورواه أحمد في المسند ١/ ٢١٦.

(١٧٩) سورة البقرة: الآية ١٩٠.

(١٨٠) سورة التوبة: الآية ٤١.

الفوز العظيم ﴾(١٨١) وأخبر أنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم ما يحبون من النصر والفتح القريب، فقال: ﴿وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب﴾(١٨٢) ، وأخبر سبحانه أنه: ﴿اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتُلون ويُقتَلون وعدا عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾(١٨٣) .

ولا شك أن الجهاد بالمال لا يقل خطورة وأهمية من الجهاد بالنفس، بل يخدم به الإسلام، وتنشر به الدعوة أكثر من الجهاد بالنفس (أي في غير جهاد الدفع) ولا سيما في عصرنا الحاضر، الذي تقوم فيه المؤسسات التبشيرية بنشر أفكارها عبر استغلالها للثالوث الخطير (الجهل والفقر والمرض)، وتبذل في سبيل شراء الذمم، وكسب النفوس الضعيفة عشرات الملايين من الدولارات ، كما تقوم بإنشاء المستشفيات للتأثير على المرضى الذين تكون قلوبهم رقيقة بعشرات الملايين، وتنفق في بناء المدارس مبالغ ضخمة حتى تقوم بتربية الأطفال وتنشئتهم تنشئة مسيحية، وبذلك نجحت في إدخال الملايين من الناس حتى من المسلمين في أفريقيا ،وآسيا الصغرى كأندونيسيا وغيرها .

إذن ، فالجهاد بالمال هو إحدى الطرق الحقيقية لمنع هذه المخططات، وصدها بل ودحضها بإذن الله تعالى، وذلك بمعاونة فقراء المسلمين ومعالجة مرضاهم، وفتح المستشفيات والمدارس لهم، وإنشاء مؤسسات دعوية لتقوم بهذا الدور بشكل مخطط ودقيق، وتنسيق كامل مع جميع الجهات الدعوية في العالم الإسلامي حتى لا يتكرر ولا يكرس المجهود في مكان ، وتهمل أماكن أخرى قد تكون أشدَّ حاجةً ، وأكثر أهمية إضافة إلى نشر الدعوة ، ولذلك جعل الله تأليف القلوب أحد مصارف الزكاة .

الجهاد بالقلم واللسان (الجهاد الإعلامي والفكري) :

كما أن الجهاد بالقلم، واللسان من خلال الكتب والمقالات، والوسائل الإعلامية المختلفة المرئية والمسموعة والمقروءة لا يقل أهمية عن الجهاد بالسيف،

---

(١٨١) سورة الصف : الآيات ١٠ – ١٣ .

(١٨٢) سورة الصف ، الآيات ١٠ – ١٣ .

(١٨٣) سورة التوبة : الآية . وراجع : زاد المعاد : ٣/ ٧٢ .

فالعالم الإسلامي يعاني منذ فترة ليست قصيرة من الغزو الثقافي والفكري، والاجتماعي والاقتصادي، والسياسي من قبل أعداء الإسلام -بجميع تياراتهم الغربية والشرقية- وقد نجحوا في ذلك وتغلغلوا في أخطر الموسسات حساسية، فلا تزال آثار هذا الغزو الفكري جاثمة على صدورنا.

ومن هنا فالجهاد في هذا المضمار، وصد هذا العدوان الفكري على أصالتنا وتوضيح الفكر الإسلامي الوسط العدل الواضح (الحنفية السمحة) الصالح لكل زمان ومكان من جهاد الدفع الذي هو فرض على كل من يملك القدرة على ذلك، بحيث يقوم العلماء والمفكرون برد الشبهات، فتوضيح الأفكار الإسلامية في جميع الميادين التربوية والاجتماعية، والاقتصادية والسياسية، والنفسية، ونحوها، قد يكون ذلك أهم خطراً، وأعمق أثراً، قال ابن تيمية: «فيجب الجهاد بغاية ما يمكنه، قال البهوتي: « ومنه هجو الكفار كما كان حسان يفعله»(١٨٤).

فالجهاد الإعلامي – وخاصة في عصر نامن أهم أنواع الجهاد ، وأخطره ، ولم تسيطر اليهود على العالم إلا من خلال المال والإعلام والفكر .

ولذلك فمفهوم الجهاد في الإسلام واسع جداً يشمل كل جهد يبذل في سبيل رفْعة الإسلام، ونصرته، وتأييد شريعته، ونشر دعوته، ورد الأعداء وإفشال مخططاتهم العسكرية، أو السياسية، أو الاقتصادية، أو التربوية، أو الاجتماعية، أو الفكرية، وأنما يتم بجميع الوسائل المتاحة المشروعة.

كل ذلك في نظر الإسلام جهاد، وقد سبق ما أوردناه من الأدلة المعتبرة الدالة على شموليته لكل هذه الأنواع، وعلى الأمة الإسلامية أن تكون أمة مجاهدة في جميع المجالات المادية والمعنوية حتى تكون قادرة على النهوض، وعلى تعمير الكون على ضوء منهج الله، وتطهير المجتمع الإنساني من الكفر، والفساد، حتى تعم الرحمة، وتنتفي الفتنة، ويكون الدين كله لله تعالى.

---

(١٨٤) وفي كشاف القناع : ٣/٣٦ : « الجهاد إما أن يكون بالقلب كالعزم عليه ، أو بالدعوة إلى الإسلام ونشره أو بإقامة الحجة على المبطل ، أو بيان الحق ، وإزالة الشبهة ، أو بالرأي والتدبير ، فيما فيه نفع للمسلمين ، أما بنفسه ، فيجب الجهاد بغاية ما يمكنه ، قال البهوتي : ومنها هجو الكفار ، كما كان حسان – رضي الله عنه يفعله » .

ثم إن لكل نوع من أنواع الجهاد وسائله الخاصة لأدائه على أتم وجه، وأكمل صورة، فوسيلة الجهاد العسكري القوة المادية والإعداد المادي، والصناعة العسكرية المتطورة، والأسلحة المتطورة إضافة إلى قوة الجانب الروحي والمعنويات القوية، وأما وسائل الجهاد الفكري فتكمن في الثقافة الواسعة، والإعداد العلمي بالإضافة إلى الاستعداد ، والمواهب الشخصية، والقدرات الذهنية، ثم الوسائل المعبرة عن ذلك من خلال الكتب والأبحاث والمقالات ، ووسائل الإعلام المختلفة المرئية والمقروءة والمسموعة وهكذا. .

وقد أشار النبي الكريم -صلى الله عليه وسلم- إلى هذا التوسع في وسائل الجهاد، فقال: « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم »(١٨٥) . بل عَدَّ -صلى الله عليه وسلم- الجهاد بالكلمة من أعظم الجهاد -كما سبق- كما رأينا أن المفسرين فسروا قوله تعالى: ﴿وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾ بجهاد الحجة والبيان والبرهان.

والواقع أن التكامل لأية أمة إنما يتحقق إذ أخذت بجميع وسائل الجهاد المختلفة المادية والمعنوية، والعسكرية والعلمية والتكنولوجية، ومن هنا نرى عظمة الإسلام حيث اختار هذه الكلمة « الجهاد » التي تشمل كل هذه الأنواع، وهي نفسها التي اشتقت منها كلمة « الاجتهاد » التي تعني قمة التطور الفكري الذي تكون لصاحبه القدرة على الاستنباط والاستخراج، والإبداع في شتى أنواع العلوم المختلفة، وبهذين الأمرين معاً يتم تعمير الكون على ضوء منهج الله تعالى ، وتعم رحمته للعالمين أجمعين.

والله أسأل أن يجعل أعمالنا كلها خالصة لوجهه الكريم ويعصمنا من الخلل والزلل في القول والعمل.

---

(١٨٥) رواه أحمد ، والنسائي ، وابن حبان والحاكم عن أنس ، وقال صحيح وأفرده كما في التيسير للمناوي ١/ ١٤٨٥ .